خضراء كالحقول

رواية

هاني الراهب



دار الآداب

خضراء كالحقول

هاني الراهب

خضراء كالحقول

رواية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى ١٩٩٣

- ١ -

كـان الجنود قـد عبروا منـذ الفجر. وعنـدما خـلا الطّريق الغـربي منهم، خرج الفلاّحون إلى المزارع والبساتين. وبقيت أنا متمدّدة عـلى أريكتي الأثيرة.

قبيـل الظهـر اقتحم أخي رعد المنـزل ببارودتـه الرّوسيّـة وهسيس حذائه الأناضولي. وفي الرّابعة بعد الظهر التقيت بناصر لأوّل مرّة.

كـان يومـاً عاديّـاً من أيّام حيـاتي. الجنود والفـلاّحـون والبنـادق، وأصوات العصافير والقذائف والمدافع والدجاج والحيوانات الأهليّـة. خـرج أخي وقد حشـا ملابسـه بقنابـل تشبه ثمـرة الأنانـاس. لبست قنـاعي وواقيتي وسربـالي، وخــرجت إلى الحـوش. مئــة ألف نحلة هاجمتني خلال مئة ثانية. سعادة لانهائيّـة، تفوقهـا فقط سعادة أن تمـدّ يدك داخل إحدى المناحل وتتناول قرصاً من الشّهـد. أن يهاجمـك مئة ألف معتـدٍ، فتتفـرّج عليهم، واثقـاً من بقـائــك، آمناً، واثقــاً من طريقك.. هناك نشوة وهناء في أن تتحرّك حيث تـريد وأنت آمن من أخطار العالم.. وهناك ما لا أعرف ماذا، لحظةً تتوّج حركتك بتنـاول الشّهد.

هذا المشهد كان يثير هـزّة يائسـة من رأس أبي وابتسامـة بكماء من شفتيه: فتاة في الحادية عشرة، شبـه محجوبـة داخل أسراب فـائرة من النّحل، فمها وأصابعها تشرشر عسلاً، والنّحل يتكاثف عليها.

تكرّر الشيء نفسه ذلـك اليوم. إنّـه الإفطار الّـذي لا أتنازل عنـه وأنا في بلدتي. لقد مـات والدي بعـد ست سنوات. ولحقت أمّي بـه

بعد سنتين. لكن عادتي هذه لم تمت. وإذ عدت إلى بلدتي لأعدّ نفسي أخيراً لامتحانات السّنة الثّالثة من الجامعة، كان لابدّ من أن أضيف إلى شروق الشّمس وصياح الدّيكة وحفيف الشّجر، هذا الطّقس الصّغير الخاصّ بي وحدي.

أنا امرأة تحبّ ذكرياتها وعاداتها الطبيعيّة. لم أتضايق من أخي لدخوله منزلنا الكبير بحذائه المتروس وحلاً. ولم أعبأ بالسّلاح الّذي خزّنه في البيت ليستعمله ضدّ الجنود والحوّامات الحربيّة. أردت أن أبادله حرّيّة بحرّيّة: لا هو يتدخّل في شؤوني، ولا أنا أتدخّل في شؤونه. بل إنّني كثيراً ما أنْصتّ له بتعاطف وهو يحدّثني عن جماعته الثّوريّة، وعن المنظّمات الأخرى، والحركات التحرّيريّة، والأمبرياليّة العالميّة، وحرّيّة الفرد... وكنت أفعل الشيء نفسه مع أخويّ الآخرين: المزارع والتاجر. وهذا هو كلّ ما يهمّ. حافظت على علاقاتي الطيّبة بهم، كرمى لذكرى أبي وأمّي، وحافظت على حرّيّتي.

أن يكون لك ثلاثة إخوة في بلدتي يعني أن يشرف على حياتك ثلاثة متسلّطين. أو بالأحرى أن يكون لهم الحقّ في أن يسألوا، وفي أيّ وقت، عن كلّ حركة من حركاتي، أو كلّ شخص ممّن أعرفهم. وقد حافظت لهم على متطلّبات سمعتهم وموقعهم الاجتماعي.

وحده أخي رعد عشق إنصاتي الحنون له. ولطالما استفاض في شرح الغد الدّيمقراطيّ العظيم الّذي ينتظر البلد على يديه ـ وأيدي جماعته. أمّا أخي عابد فتابع سيرة أبيه في الزّراعة. ومضى أخي عوّاد إلى عالم شبه منفصل، هو وتجارته في العاصمة ومالطا ومرسيليا.

تنتشر بلدتي حول جبل مخروطي صغير. وهي مفتوحة للجهات

الأربع. ولأنّها مثلي، تتفرّج على كلّ شيء ولكن تتابع حياتها الخاصّة باستقلال عنيد، فهي مفتوحة للقوافل منذ عهد إيلاف قريش، وللمسافرين والعشّاق والمقاتلين وقطّاع الطّرق. وفي العصر من ذلك اليوم، خرجت إلى بطاحها المتموّجة الخضراء. إنّها هنا، بلدة صغيرة ولكن موغلة في القدم، وأبديّة. لقد اعتدت يومها أن أحصي من فصيلة زهرة المرغريت فيها أحد عشر نوعاً. وقد خرجت آنذاك لأبحث عن المزيد.

تناولت إفطاري وسط النّحل، ثمّ انكببت على كتبي خمس ساعات متواصلة. حوالي الثالثة أحسست برأسي طبلاً محشوّاً، فيه طنين أصمّ وأعمى. وفي حالة مثل هذه كان عقلي يوسّع رقعة الحياة حوله، ويوقد النّار في أسئلة خامدة: ماذا بعد؟ ماذا أنفع أنا؟ إجازة جامعيّة في العلاقات العامّة، وماذا يعني؟

أنا أحبّ الحياة. لكنّني لا أحبّ الأسئلة. خرجت من الدّار إلى الحقول المجاورة. أشجار الرّبيع الباسقة، وأرض مرشوشة كالشّامات بآلاف الأعشاب والأزهار: هنا تحوّل قلقي إلى حزن.

وأنا أحبّ الّذين حولي. أحبّ السّت مقبولة، حلّابة بقراتنا. وأحبّ سمعان الكوّاء. أجد سعادة حقيقيّة ووداعة في التّوجه إلى محلّه، حاملة ملابسي في كيس، ورؤيته هناك، في المكان الّذي أتوقّعه فيه، مرحّباً مبتسماً. وأحبّ الخيّاطة، والمزّين، والنّادل، وصاحب المكتبة. هؤلاء الّذين يمنحونني حسّاً بالأمان، يثبتون الأشياء في العالم الّذي حولي فأستقرّ وأطمئنّ. أحبّ الشّوارع الّتي أعرفها في العاصمة، والأمكنة، وخاصّة الكورنيش وسوق الخُضر. والحقيقة أنّني في ذلك اليوم من حياتي، أحسست أنّني أحبّ آلاف آلاف الأشياء، وأنّ العالم جميل ورغيد.

حوالي الرّابعة من بعد الظّهر. الشّمس الهادئة تحملها النّسائم القويّة القادمة من أفق البحر. التقيت بناصر للمرّة الأولى. ظننته ضبعاً بادئ الأمر، أو ثعلباً. لم تره عيناي، فقط أحسّتا به. كان ينخطف بغتة من مكان إلى مكان، فيخيفني، ثمّ يختفي بعض الوقت فيخيفني أكثر، وينخطف مرّة أخرى، يقترب ويبتعد، يدور ويتقدّم.

تضايقت عندما أدركت أنّ هذا المنخطف ليس ضبعاً ولا ثعلباً. هو إذن واحد من المحرّرين، أو الثّوريّين، الّذين استباحوا أزهاري البرّية في السّنوات الأخيرة ـ هم/والجنود والعربات العسكريّة،وطبعاً: الرّصاص والقنابل والقذائف. كان يرتدي سربالاً، أو هكذا خيّل إلي. ولحظة نزع قناعه، رأيت وجهه.

انعطفت إلى اتّجاه ثان. لم أعرف ما الّذي اعتراني. هو نوع من الحزن. لكنّه أصابني بزهد كئيب. تمشّيت لا على التّعيين، بين الأزهار والنّباتات الّتي يعجّ بها السّفح، وكأنّني لست على مرج أخضر بل في صحراء. كلّ هذه الصّراعات! كلّ هذه المعارك! أيّ شيء في النّفس البشريّة يستبدّ بها حتّى ليجعلها تفضّل الموت على الحياة؟

انتبهت إلى أيّ حدّ ابتعد بي المشي، عندما وجدتني فجأة أتلقّى على صدري جعبة ذات لون أخضر منطفئ. ثمّ سمعت صوتاً يأمرني بشراسة خافتة صارمة: «اختبئي في الدّغل!» وفي تلك اللّحظة لمحت صاحب الصّوت. تابعت اندفاعه العنيف إلى أمام، ثمّ هبوطه المتعثّر للتخوم الحجريّة واختفاءه في وهدة جنوبيّة. كان يحمل رشّاشاً، وزنّاراً طويلاً من الرّصاص.

اندلعت القذائف فجأة. اندلعت النّيران. أدركت أنّ الجنود قد جاءوا مرّة أخرى، وإن يكن في غير أوانهم... ولكن.. يا للسخف! كلّ أوان أوانهم.

تلفّتّ حولي بذعر مفاجئ. اندفعت إلى الدّغل الّذي أشار إليه الرّجل. كان بيتاً. أعني، تخطو فيه إلى اليمين، وتلف إلى اليسار، وإذا أنت في فسحة مربّعة تتّسع لك جالساً. جلست. وضعت الجعبة إلى جانبي. أغرقتني فرحة لعوب، فقد أحسّست أنّ الدّغل لبسني كما لا يفعل أيّ تايور منمّق من عند مدام صالحة. وكذلك وجدتني تماماً كما أحبّ أن أكون: في قلب العالم، والعالم منصرف عني.

من هناك لمحت اندلاعات النّار وسمعت أصوات الرشّاش. إنّه ذلك الرّجل. الضّبع أو الثّعلب. يريد أن يقضي على الجنود ومدرّعاتهم. لم أجد ذلك شيّقاً. التفتّ إلى الجعبة. تذكّرت ثقلها الفظيع. فتحت سحّابها، وشهقت، ودفعتها بعيداً عني. حوالي ثلاثين قنبلة سمّرت أعينها بوجهي.

اندفعت خارج الدّغل. رعب أصفر! رعب أصفر اكتسحني. بغلط بسيط لا أعرفه يمكنني أن أصير ألف قطعة. ويمكنني أن أفجّر هذه الربوة كلّها. هذا الرّجل مجنون بسبعة طوابق. وإلاّ لما حمّلني كلّ هذا الموت. لقد رماه على صدري! يا لَبَاقَةِ الأزهار الخاصّة جدّاً!

سمعت الهدير قبل أن أرى الحوّامات. ثمّ رأيتها تقترب بسرعة مرعبة، وتقترب منّي. لم أدرِ ماذا أفعل، ولا ماذا فعلت. رأيت نفسي في الدّغل من جديد، بجوار تلك الباقة البكماء من العقارب. تلفلفت على نفسي هناك كأنّني عدت إلى رحم أمّي. حاملو الرشّاشات هؤلاء، المتمركزون في حوّاماتهم، لا يعرفون المزاح إطلاقاً. وهم يصوّبون ويطلقون الرّصاص مثل واحد يفتح الحنفيّة للسحّاح كي يرشّ الأرض.

إلى أن دخل ناصر عليّ. كان في تلك اللّحظة مجرّد الشّخص

ذاك، الّذي رمى بالقنابل إليّ. الشّخص ذو الملابس المبرقعة والشّعر الطّويل الّذي لم يغتسل منذ دهر. شعور غريب انسدل على عيني وأنا أنظر إلى الوجه البارد واليدين النّشطتين. وضع الرشّاش وزنار الرّصاص الطّويل على تراب الفسحة، ثمّ تناول عدداً كبيراً من القنابل وحشرها داخل عشرين جيباً في تلك الملابس. بدا المكان مألوفاً تماماً له، وبالتفصيل - أعني كلّ شيء سواي أنا، الّتي لم أفز بلحظة إقرار واحدة منه.

«خلّيك مع الرشّاش لبينما أرجع».

بعد انقشاع الأصوات النّاريّة خرجت من الدّغل. أحسست أنّني استمتعت تماماً بمشواري، وربّما أكثر من المنتظر. كانت الشّمس أقرب إلى البحر البعيد منها إلى ربوتي. ورأيت أنّني سيمكنني، بعد هذه المتعة النّادرة، أن أعود إلى البيت وأدرس للامتحان حتّى اللّيل.

ثمّ جاء ذلك اللّيل فغيّر كلّ شيء. تركت الامتحان، وتركت الجامعة، وتبعت ناصر. جاء هو، مع رعد، في المساء. كان فماهما مليئين بالكلام عن «المعركة». كنت في غرفتي، ودخل رعد فقبّلني على جبيني. أنا أعرف رعد طفلاً مؤذياً، لا أخاً بهذه الحنّيّة. تفرّست في وجهه طالبة تفسيراً. ابتسم. قال إنّ ناصر حكى له على كلّ شيء. لم أفهم. وقال هو: «ناصر! ناصر! نسيته بهذه السّرعة؟!»

قلت لأخي إنّني أعرف حوالي مئتي رجل، ولكن ليس بينهم واحد اسمه ناصر، واحد يمكن أن يحكي لأخي عن شيء حدث بيننا.

تقدّم رعد وقصّ لي باختصار ما حدث لي بعد الظّهر. وفهمت أنّ ذلك الرّجل المقنبل هو ناصر. تقدّم رعد منّي ثانية وقبّلني. «أنا فخور بك»، قال لي. «مثلك تكون النّساء»، قال أيضاً.

لم ينتبه إلى تحديقتي الطالبة تفسيراً. لا ينتبه رعد إلى تعابير الوجه. يكتفي بتعابير اللّغة. ومضى يقول: «كنت بنت بلد! مددت يد الخير! وحافظت على شرفك! ناصر قال إنّك كنت مثال الشّرف. لكن ناصر، بيني وبينك، من مستوى غير مستوانا».

كان ناصر في الصّالون. التقت نظرتانا، فابتسمت له كأنّني سمعت للتوّ نكتة: إذن هذان الكتفان الأهدلان هما لذلك الرّجل الفزّاعة. كان مايزال شبيهاً بالفزّاعة، ولكن ليس لأنّه يحمل رشّاشاً وقنابل. لقد وقف هناك وقفة مسكين لا يعرف ماذا يفعل في حضرة المحسنين إليه. هذا الرّجل الّذي أوشكت أن أحيّيه: «مساء الخير، عمّو،» كان في تلك اللّحظة ولداً مرتبكاً أمام امرأة مسنّة هي أنا.

كان ناصر مستحياً يومها. أطرق، وارتبك، وتلعثم، وسحب يده من يدي فور أن تمّت المصافحة الاجتماعيّة. وسلوكه هذا جعل أخي يقول بعد ذهابه: «شفت؟ هؤلاء أصدقائي! رجال شرفاء يصنعون مجتمعاً جديداً».

هذا التأدّب المضحك عنى لي فقط أنّ هذا الرّجل الّذي في الثّلاثين لم يعرف النّساء بعد. لقد تعامل معي كأنّ نظرة واحدة من الرّجل كافية لفضّ بكارة المرأة. خاطبني بنصف إطراق، وبكلمات مقتضبة، أبرزها: يا أختي؛ إن شاء الله؛ بإذن الله. خاطبني بفروسيّة شامخة، وتعفّف صوفي. كأنّه وهو واقف هناك، أيّ شيء سوى كونه ذكراً، مع أنّه في داخله، وفي تلك اللّحظة بالذّات، ليس سوى ذكر.

هذا الموقف منه أخذ بالكامل شهوراً طويلة من معرفة توطّدت بيننا خلال أيّام. منذ أن لبس ثوب العفّة ذاك، لم يستطع أن ينزعه

عنه. اتّسخ الثّوب، وتهدّل، وامّزق، ونصلت ألوانـه.. وناصر مصرّ على أنّه الثّوب الوحيد في العالم الّذي يمكنه ارتداؤه في حضوري.

بعد العشاء جلسنـا إلى الطاولـة نتناول الشّـاي. أخرج نـاصر من أحد جيوبه الخرائط المئة الحاشـدة التفاصيـل، وفَرَدهـا على الـطاولة. وعندها صار شخصاً آخـر. خرجت من فمـه لغة جبّـارة. وخرج من رأسـه ذكاء مـدهش، ومقدرة غـير معقولـة عـلى حـلّ الإشكـالات. وخـرجت من وجهه تعـابير ضـاريـة من الفـرح والانشغـال والغضب والأمـل. ورأيتني أندهش من أمـر لا يخطر عـلى بال أحـد. فأنـا الّتي تملؤني الخيلاء لمعرفتي بـأنواع الأزهـار، رأيتني أترك كتـابي وأنصت له وهو يشرح لرعد طريق العمليّة المزمع تنفيذها وراء خطوط الجنود.

قال ناصر لـرعد إنّ عـلى المجموعـة أن تتحرّك من هنـا (وأشارت إصبعه إلى نقطة على الخارطة) إلى هناك (نقطة أخرى) حيث ستصـل إلى حقل صغير من الزّيتون أرضه مكسوّة بزهر الأقحوان.. وبعدهـا يتحرّكون إلى نقطة ثالثة فيها نبع جارٍ يخرج من بين شجيرات هندبـاء نامية نموّاً غير مألوف... خلال دقائق بـدا لي مؤكّداً أنّ هـذا الرّجـل يعرف الأنواع واحداً واحداً للأزهار والأعشاب البرّيّـة في مساحـة من الأرض تُنيف على ستمئة كيلو متر مربّع.

لم أعـد أستمع لـه في ذلك اللّيـل. رغم طول الجلسـة، واحتـدام المناقشة، وانضـمام اثنين آخـرين إلينا.. لم أعـد أستمع لأحـد. صار كلام آخر يطلع من ذهني، ورحت أستمع له. وراحت صور أخـرى تطلع من مخيّلتي، ورحت أتفرّج عليها.

الكـلام والصّور كانـت من وحي الجلسـة. لقـد استحـال عـليّ أن أسمـع وأرى السّيول الّتي تتـدفّق من هؤلاء الأربعة دون أن أنتحلهـا

وأجعلها ملكي الخاصّ: سيول الأحلام القويّة النابضة، وسيول أرقام المسافات والبشر والأسلحة، سيول السّاعات والدقائق والثواني الّتي ستستغرقها العمليّة والّتي سترسم زمناً آخر.

يومها انقشعت عن عيني غشاوة. رأيت ناصر يعرف الأزهار مثلي، أمّا أنا فأجهل الحياة الّتي اختزنها هو. وعرفت أنّني، وأنا الفتاة المدّللة، يجب أن أفعل شيئاً آخر غير التعرّف على أنواع أزهار البراري. وهذا التخصّص في العلاقات العامّة، الّذي أستلّه من الكتب وأضعه في رأسي... أين منه معرفة مباشرة بالقلب الإنساني وبناء علاقاتي على أساسها؟

انتبهت إلى أنّ أخي وزائريه الجديدين ينظرون إليّ خلسة وبتقطّع، وقد توقّف الحديث بينهم. رأيت ناصر مطرقاً وسبابتاه وإبهاماه تدير بينها قلماً ذات اليمين وذات اليسار. عندما طال الصّمت والنّظر، أيقنت أنّ هناك ما يجب أن يقولوه لي ولا يعرفون كيف يقولونه.

هتفت لهم بسخرية خفيفة: «كأنّ نظراتكم تقول إنّي لازمة لكم في العمليّة.»

كنت واقعة في أسر صوري وكلماتي السّريّة. تكلّمت عن رغبتي أنا لا عن حاجتهم هم.

خبطت يدا ناصر على الطّاولة، ونهض مستنكراً. عبر دهشتي، فهمت أنّ سخريتي قد قالت الحقيقة. ثمّ انفجرت لغتهم مثلما تنفجر قنابلهم. لم تكن الكلمات فقط ما عبّر عن خلاف شديد بينهم، وإنّما الأصوات أيضاً. في بلادنا، نحن لا نعرف كيف نختلف، لكنّنا نعرف جيّداً كيف نتعارك.

قلت لهم بمناكفة: «أقدر أن أركب درّاجتي، وأنفّذ المهمّة الّتي تريدونها.»

صمتوا. نظر إليّ ناصر لأوّل مرّة، كأنّي سبقته في استنباط حلّ عجز هو عنه. ونهض رعد فقبّلني على جبيني. وركض، على غير المنتظر، خارج الصالون.

استمرّ الصّمت إلى أن عاد رعد. كان يجرّ دراجتي ذات الأشرطة المرفرفة وبلاستيكات الضّوء الزاهية. بدا ناصر محبطاً. أطرق وقال: «طيّب. لكن خلّونا ندرس كلّ الاحتمالات».

صاح رعد: «يا الله يا أختي يا نادية. ستناضلين معنا».

وهكذا كان. في الصّباح التالي ركبت دراجتي وانطلقت بها جنوباً. قطعت مسافة خمسين كيلومتراً بخط شبه مستقيم. كان ناصر قد زوّدني بخارطة؛ ورعد وزميلاه بخارطة أخرى هي ورقة مرسوم عليها الطّريق. ناصر لم يكتب شيئاً. أعطاني علامات الطّريق الفارقة شفهيّاً: كرم عنب على بعد خمسة كيلومترات، ثمّ حقل من أزهار المرغريت، ثمّ رابيتان كلسيتان جرداوان، ثمّ صفّان من أشجار التفّاح (وشرح لي كيف أميّزهما في فصل الرّبيع ذاك). لم يكن يرسم خرائط، ليس فقط لكي لا يعطي ما يدان به إذا اعتقلوه، وإنّما لكون العالم موجوداً بأكمله في ذهنه ـ كل كبيرة وصغيرة.

تركت كتبي وركبت دراجتي. أنهكتني أربع ساعات من سَوْق الدرّاجة. دخلت البيت الخشبي الّذي استقبلني فيه أبو حاتم وكأنّني أدخل فندق بلازا. وتمدّدت على البساط الخشن القماشي في صدر الغرفة وكأنّني أتمدّد على ريش النّعام. حقيقة الأمر أنّ بدني كان متصلّباً إلى درجة جعلتني أرى البساط والأرض أطرى بكثير منه.

استقبلني أبو حاتم بالكرم الّذي يوحي به اسمه. لم يَبْدُ محرجاً من رثاثة البيت، ولا من البساط القماشي على الخصوص. وبدا معتزّاً وبالغ الحرص بجدارين كاملين من رفوف الكتب والمجلّات. شيء واحد شغل باله طول الوقت: أن يتأكّد من أنّي صديقة لا عدوّة. وقد جاءه اليقين عندما وصفت له عقل ناصر المليء بالخرائط والأزهار وأنواع التّربة والأسلحة. عندها فقط نهض إلى خوان مفتوح، مليء بالدكاكير، وتناول منه زنّاراً حريريّاً متنوّع الألوان.

«قومي يا بنتي»، قال لي.

نظرت إليه باندهاش. لم يَبْدُ أنّه يكترث للدهشة. بقي وجهه ساكناً، مصرّاً على قيامي، منتظراً.

سألته غير مصدقة: «تقصد أنّي سأرجع فوراً؟»

ارتفع حاجباه ووقفا فوق، مدّة ثانيتين كاملتين. ثمّ سأل بنبرة مريرة: «وإلّا؟»

قلت بعناد وتأوّه: «أنا مُكَسْوَرة. لا أقدر أن أتحرّك.»

تفرّس فيّ باستياء مزوّر، كأنّه يتساءل لماذا أرسلوا هذه البنت الرّخوة. لكنّه قال: «ضروري رجوعك يا بنتي. وقولي لهم، لا يرسلوك مرّة ثانية».

انتصب عند قدمي بقامته المربوعة المليئة، ووجهه الطّافح، فأرسل رعشة في بدني. رأيته عالماً متكاملاً، بالغ التكوّن، شديد المتانة؛ وانسحرت. لقد أثار ذلك أنوثتي. أتكأت على مرفقي بآهة صغيرة. وبدا نهوضي عن البساط الوثير فراقاً حزيناً لم يحن أوانه بعد.

قال أبو حاتم: «ارفعي يديك يا بنتي».

جفلت في داخلي. رأيتني مقبلة على استلاب. رفعت يديّ. وفيها

هـو يلفّ الزنّـار على خصري، انتبهت إلى «يـا بنتي»، وتذكّـرت «يـا أختي» الّتي اختُـصّ بها لسـان ناصر. أنستني لفّـة الزنّـار الكلمتـين، ولفلفتني في مويجات من الانتعاش والتوتّر الدّاخلي. كانت حركة يـديه خفيفة، مدغدغة. شدّت الزنّار على خصري يمين يسار، ببراعة وقـوّة جعلتا جذعي يتحرّك معها في الاتّجاهين حركات فجائيّة قصيرة.

«الحمـد لله أنّك جئت بهـذه الملابس البسيـطة،» قـال أبـو حـاتم بوجوم.

أحسّست بالزنّار يكاد يقطع خصري. وكان إحساساً مفعماً بالشبق والنشـوة. لم أعـد أشكـو من أيّ تعب. لكن حيـاديّـة أبي حـاتم الرصاصيّة وأبوّته الحديديّة، جعلتاني أرى نفسي صغيرة وضائعة.

عبرت التّلال والمنعطفات في العودة فلم أر زهراً ولا شجـراً. كنت مـرتبكة بهـدوء ومنشغلة. وعلى طـرف من تفكيري كـان الزنّـار هناك كغيمـة صغيرة. وخـاصّة انشـداده عـلى خصري، والأوراق الملفـوفـة داخله.

لابدّ أنّ كلّ امـرأة تتذكّـر اللّيلة الأولى الّتي تحرّكت أنـوثتها فيهـا. بـالنّسبة لي، فقـد تحرّكت أنـوثتي كسؤال. بالأحـرى، كقلق مبهم.. وكـان معه أسئلة أخـرى عن الحياة والمستقبـل والمسـار. صحيـح أنّي كنت أناوش الحبّ مع زميـل لي في الكلّيّة، لكنّي لم أنـل من المناوشـة غير مشاعـر التسلية والفـرفشة. كـذلك لم أكن قلقـة في أيّ يوم ولأي سبب. أبـو حاتم هـذا، أشعرني أنّي مجـرّد حصاة صغـيرة على سفـح جبـل شامـخ اسمه أبـو حاتم. أشعـرني أنّ خضرة النباتـات البـرّيّـة المنتشرة حـول طريق دراجتي أكـثر جـاذبيّـة وجمـالاً بكثـير من خضرة عينيّ. وفيـما كان لحمي ينفلق بشهب التّعب والـوجـع، وأنـا أسـوق

دراجتي في العودة، كان ذهني ينفلق أيضاً بصور الاضطهاد والإهمال اللّذين يمارسهما العالم ضدّي.

لازمني الاضطهاد والإهمال عاماً كاملاً. ولكن.. بمعنى ما، قد لا يكون قولي هذا صحيحاً. خلال أشهر، لم يبق تعبير عن التّقدير والإعجاب إلّا وأعلنه «الرّفاق» لي ـ أنا الفتاة البرجوازيّة الّتي تحمّلت عن طيب خاطر كلّ العناءات والمشاق الّتي يتحمّلها الرّفاق لكي تتحوّل إلى نادية أخرى، نادية حرّة منتمية إلى العالم الجديد الجميل.

لقد صعق أخي رعد لحظة رآني على عتبة البيت، والسّاعة لم تتجاوز الثانية بعد الظّهر. «لو كان كارل ماركس على قيد الحياة، لقلّدك وساماً»، هتف بي وعيناه مازالتا جاحظتين.

«الله يرحمه ويرحمني أنا معه»، قلت وأنا أتهالك على أقرب كنبة، وأخي يتبعني إليها. «هل كان هذا الأفندي يقلّد النّاس أوسمة؟»

ردّ أخي مازحاً ومفتخراً: «كنت سألتمسك عنده».

ثمّ غاب عن البيت.

لم أستطع الخروج لأكل العسل. مع أنّي كنت خائرة من الجوع أيضاً. بسرعة ساعدتني مقبولة فأوصلتني إلى سريري. وبعد قليل جاءتني ببعض الطّعام والعصير. ثمّ غفوت على الكنبة.

الروح الفدائيّة الّتي انبثقت منّي فجأة أقنعت الجميع ـ بمن فيهم أنا ـ أنّني مشروع مناضلة من الطّراز الأوّل. ووسط عجيج وضجيج من الاستحسان والمشاريع الطّافرة، حملت أمتعتي في الصباح إلى أحد المعسكرات، وحللت هناك.

لم تكن الهيصة هي السّبب. كلا. هناك أسباب أعمق لسلوك الإنسان لا يدركها إلّا فيما بعد. ولقد وعيت لاحقاً أنّي انطلقت وراء

عالم جديد، وأردت أن أكون إنسانة مفردة لها أنساق حياتها الخاصّة الّتي تختبرها وتصنعها كلّ يوم. تصرفات أبي حاتم أشعرتني أنّني مجرّد ورقة شجر في مهبّ أجنحة النسر. لكن ذلك لم يزعزع طمأنينتي. صحيح أنّه ربط الزنّار على خصري وكأنّه يسرج مهرة من اسطبل بيتنا، وكأنّني لست أنثى على الإطلاق، لكن انعدام حسّه لم يستفزّني.

الّذي أقلقني ولخبطني هو ناصر. كان حيادياً ورصاصياً وجبليّاً مثل أبي حاتم. وكان أيضاً شيئاً آخر. هذا الشيء هو الضّعف بالتّأكيد، سوى أنّه الضّعف الّذي ليس عجزاً، الّذي سببه حاجة في القلب لا يفتح العالم الخارجي باباً لها. معي فقط كان كذلك. مع غيري كان مارجاً من نار. وأيقنت أنّ في نفسه حاجة، وأنّه يراها حاجة غير مسموح بها.

الّذي استفزّني هو: لماذا أحسّ أنّ حاجته غير مسموح بها؟ هو: من قال إنّ حياتي العاطفيّة مرهونة بأذونات يصدرها إخوتي؟ هذا الّذي بدا شجاعاً ومقداماً حتّى الموت، أمسك عن مخاطبتي. كنت أضحك في سرّي عليه. لكان في غنى عن هذا الافتعال والارتباك، لو أنّه جاءني وأعلن عن حاجته ببساطة. ولكنت سأردّ عليه بالقول: «أنا يا عمّو لا أقدر على تلبية حاجتك. آسفة».

كنت في العشرين. ولأوّل مرّة أحسّني في وسط لا يعبأ كثيراً بالتّربيت على مشاعري الأنثويّة. لم يكن هذا هو الوضع في الجامعة، أو حتّى في العاصمة، حيث شعور الإنسان بذاتيّته متوفّر على الدّوام. هناك لم أكن حتّى في حاجة إلى التّربيت. ولا كانت المشكلة مطروحة أصلاً. لكنّ حِرْصَ جميع الرّفاق على معاملتي كأنّني شغلة مقدّسة،

إذا لمسوها تنجّست. . وحِرْصَ ناصر المستمرّ المرهق على إخراج ثلوجه وطمري بها. . فتح عيني على نفسي وجعلني أسألها: نادية رويحة، أنت ماذا تساوين؟ ماذا تعنين؟

وسط هذه الرّياح النفسيّة المتداخلة تحرَّكتُ نحو المعسكر. سيكون مبالغة منيٍّ القول بأنّي ذهبت إلى هناك لأنّي أردت أن أقدّم احتجاجاً ضدّ العالم. أنا لست من النّوع المحتج. فقط أحببت أن أكون شيئاً نظيفاً وجميلاً وقابلاً للحياة.

كنت أرى نفسي في العاصمة سديماً، رخوة في العمق ومشتّتة على السّطح. وعندما قالوا لي، عندما قال لي رعد وناصر وكلّهم، إنّي سأتحوّل إلى كيان متين متبلور وإلى فتاة أخرى، قبلت كلامهم ومضيت معهم. رأيتني محتاجة إلى أن أقبل كلامهم، ربّما لأنّي أردت الخروج من طاقيتي وقناعي وسربالي، وترك نحل البراري يلسع روحي وجسدي.

لم يجد رعد الأمر منافياً للشرف والعفّة. مادمت أقيم في خيمة الرّفيقات، فهذا وحده يمنع حدوث كارثة جنسيّة، رغم أنّ الحشمة لم تكن وافرة هناك، بالمعنى التقليديّ. يجب أن أقول بسرعة إنّ المعسكر لم يكن ديراً. لقد أدّينا تمارين الصّباح معاً، وتناولنا الإفطار معاً، والدّروس النظريّة ودروس الأسلحة والمسيرات، وكلّ شيء. فقط، لم ننم معاً.

ناصر نفسه ألحّ على إشراكي في جميع التّدريبات، وعلى إطعامي من الحيّات المشويّة أثناء المسيرات. كنت أشعر بعينيه تحضران إليّ، وتبتعدان عنّي، وفيهما قسوة، وصَمْتٌ وانتظار لوقوعي في الغلط. على نحو ما، صار مشرفاً عليّ ـ لكبر سنه، ولأنّه صديق خاصّ لأخي.

وعلى نحوٍ ما نشأ بيننا نوع من التحدّي، عيناه، بإشفاقهما وترفّعهما، تقولان إنّي ضعيفة ولا قبل لي بطريق الإنسان الجديد إلى الحرّيّة والعدل؛ وجسدي بانهماكه عميقاً في التّدريب، بعيداً عن الأنوثة، يقول إنّه سيروّض عقلي ويدفعه عبر ذلك الطّريق.

لم يكن التّدريب رياضة الصّباح فقط، ولا فكّ البارودة وتركيبها. هذه النّشاطات خلقت عالماً متوتّراً حميماً داخل عالمنا الجماعي البكر ولكن الغافل عن الذّات والخفقات. إذ، ماذا يكون شعور فتاة في العشرين وهي ترفع رأسها بغتة عن بارودتها المتناثرة حولها، وترى عموداً شامخاً حدّ كتفها، رأسه في السّماء وقدماه مغروزتان في الأرض؟ في عالمنا الجماعي، كان هذا طبيعيّاً. ناصر هو «الرّيس». في عالمي الدّاخلي الخاصّ كان هذا انحرافاً في الدم، وإرباكاً لدورته.

وكيف إذا تكرّر المشهد، وأنت منبطح على الأرض ببدلتك المرقّشة، تحاول أن لا تفلت رصاصة من رشّاشك وأنت ترمي على دائرة سوداء في دريئة بعيدة؟ لقد كان ذلك انكشافاً للستر. لحظة أنهيت الرّمي، وصار بإمكاني الانتباه إلى شيء آخر غير أزيز الرّصاص ووميضه، أحسّست بالعمود نفسه منتصباً عند خاصرتي. للتوّ أحسست أنّ بدلتي قد سقطت عنّي، وملابسي الدّاخليّة كلّها اختفت. قبعت في مطرحي وأطرقت، مثل جُعَل يعرف أنّ بقاءه متوقّف على انعدام حركته.

نعم، أحسست أنّي مهدّدة. . وأنّ أنوثتي الّتي كانت قد حشرت في قمقم حتّى تلك اللّحظة، انكشفت كعورة، وتوشك أن تستباح. كان حذاؤه الأناضولي يربض عند خاصرتي. أحسست بكراهيّة متفجّرة

صارخة لهذا الجبل الرّصاصي الجليديّ المسدود الّذي يشاهد عربي. تمنّيت لو بقي في المشط بعض رصاصات لأوجّهها، دون أن ألتفت، إلى ساقيه المتعجرفتين، ليقع ويصرخ مستغيثاً.

التفت أخيراً. لم أشاهده عند خاصرتي. كان يمشي بهدوء حثيث نحو خيمة الذّخيرة. لم يقل كلمة واحدة عن دريئتي، الّتي استقرّت فيها رصاصاتي كلّها. كلّهم قالوا إلاّ هو. وكنت الوحيدة الّتي لم تخرج واحدة من رصاصاتها خارج الدريئة. صاحوا فامتلأت الفلاة بأصوات إعجابهم. وظلّ هو صامتاً: إنّني أخت صديقه، «عِرْض» ذلك الصّديق.

حتّى ذلك الحين لم أشأ أن أعطي لسلوك ناصر أيّ حجم ملحوظ في ذهني. كنت متعوّدة على هذه التجاهلات الخرقاء من زملائي في الجامعة. لم أتوقّعها في المعسكر. تصوُّروا فتاة تقع في حبّ زميلها لأنّه تجاهلها، كم ستكون هي وحبّها سخيفين تافهين. تضايقت فقط من اعتقاد ناصر غير المعلن بأنّ شخصاً مثله يمكن أن يعني لي شيئاً إذا حاول أن يتودّد إليّ أو يغازلني. رأيت في تجاهله المتعمّد الدّؤوب إهانة لأنوثتي وعقلي معاً.

طبعاً هو كان يتجاهل. كلّما اجتمعنا في ساحة المخيّم، أثناء المساءات المقمرة، كان يصير إنساناً آخر. إذا رقص الرّفاق، رقص. وإذا غنّوا، غنّى. وإذا تبادلوا النِكات كان من بين الأخف دماً. وإذا تناقشوا كان من بين الأنفذ صوتاً.

وقد رقص وغنّى وتحاور بطريقة واحدة لا تتغيّر. لم يسرف ولم

يُقتِّر. لم يحاول أن يبدو خارقاً ولا متفوّقاً. وربّما بدا أنّه غير قادر على ذلك ـ بسبب قلّة اندفاعه ورزانة حركته.

استغراقه فقط هو الّذي أعطى انطباعاً يقينيّاً بوجود شخص آخر داخل شخصه. عندما يكون رَقْصٌ، يصير هو راقصاً ولا شيء آخر. وكذلك عندما تكون المناقشة، والتّنكيت، والغناء. وكلّما راقبته في واحد من هذه الأوقات اندهشت من تقمّصه التّام للحالة الّتي هو فيها. لقد غنّى وضحك بجماع حنجرته ووجهه وعينيه. ورقص بكلّ جسده، وبكلّ خلجة من هذا الجسد. وأثناء المناقشة، تكلّمت عيناه بقدر ما تكلّم لسانه، وأنصتتا بقدر ما أنصتت أذناه. لقد كان ابناً حقيقيّاً للّحظة ـ وللزّمن أيضاً.

بصورة خاصّة نقاشاته. ليس ناصر قادراً على إلقاء خطابات. هو آخر من يستطيع ذلك. غير أنّه يستحيل، عندما تأتي تلك اللّحظة، ألاّ تصمت. يستحيل ألاّ تترك أفكارك جانباً، وتتخلّى عن المجادلة لتستمع إليه وهو يتكلّم. يتكلّم؟ قل، يفيض.

تناقش الرّفاق في المسائل الكبرى، بالطّبع. وكان سهلاً حتّى بالنّسبة لأخي رعد، الّذي لا يميّز بين الغابة والشّجر، أن يصل بسرعة قياسيّة إلى التّنظير والتّجريد، وقول «الحقائق الكلّيّة المطلقة». لكن صوت ناصر لم يطلق أفكاراً، بل أطلق أحلاماً. كان المسيح صديقه أكثر ممّا هو كارل ماركس. وقد رأى الاثنين مبشّرين بجنّة أرضيّة تبدأ عند ذاك المنعطف، أو وراء تلك التّلال، وأنّ ناصر سينطلق بعد قليل إليها، وسيصل بلا إبطاء، وسيجد الذئب يرعى مع الغنم، والرّأسمالي يقدم صك تنازل عن أملاكه للعمّال ثمّ يتناول

إفطاره معهم، والبوذي واليهودي والمسيحي والمسلم يتصاهرون. . . وعندها يغدو ناصر الصّفوي ابناً حقيقيّاً. لا للزّمن وإنّما للتّاريخ.

أَوَكان الخوف على الحلم هو ما جعل ناصر يمسك الواقع بقبضة من حديد؟ ما أكثر ما رأيته شخصاً لا يطاق، وهو يجرّنا عبر أنفاق الأسلاك الشّائكة، زاحفين على بطوننا ومرافقنا، غارزين أنوفنا في الأرض لئلا تعلو الرّؤوس فتعلق بسلك يمزّقها ويقتلع شعرها. . . ونزحف ونزحف، بينما حواسّنا تتحطّم بالغبار الكثيف، والدخان الخانق والأصوات الرّاعدة. ما أكثر ما جرجرنا في البرك الآسنة، والمستنقعات المغرقة، وسط الجثث النتنة الفظيعة، الطافية أمام أعيننا، جثث الكلاب والأرانب والضّواري الّتي لا أعرف من أين حصل عليها.

لقد حاولت أن أعبر ذلك المستنقع. حاولت بكلّ قوّتي، وبكلّ إرادتي. ولكنْ هناك حدّ لتحمّل القذارة. عند هذا الحدّ سوف يجبرك بدنك على الانسحاب، وسوف يلغي سلطة العقل والإرادة وينسحب.

خوّضت حوالي عشرة أمتار. الماء يغمر خصري ويخز فخذيَّ وسرّتي. الوحل يغمر كاحليّ. بارودتي مرفوعة بيدي اليسرى إلى الأعلى. لكن الاستمرار بدا مستحيلاً. لأوّل مرّة أصدّق ما يقوله الفيزيائيُّون عن أنّ الرّوائح مادّة عضويّة وليست أشباحاً. لقد لامست وجهي ومنخريَّ وأجفاني، وطمت عليها. ثمّ جثّة ذلك

الضّبع! ليس رعباً وحسب ما أحسست به. كـل رعب يمكن التحكّم بـه. أمّا الـرّعب الّذي هـو وليد القـرف، فـلا يمكن. وقلت لنفسي: خلاص! اطلعي من هذا المرحاض يا نادية، وليكن ما يكون.

قلت لنفسي أنا لا أريد أن أصير قدّيسة عصر جديد. أريد فقط أن أحقّق فرديّتي وحرّيّتي. هـذه القسوة عـلى الحسّ والجسـد، فـات أوانها. نحن بحاجة إلى إشباع الحسّ والجسد، لا إلى قمعهـما. نحن بحاجة إلى استرداد جميل لـطبيعتنا، لا إلى قمـع قبيح. وأنـا سأخـرج فوراً إلى شلّال عين مرداس، وآخذ معي الشّامبو والصّابـون والعطور وأستحمّ، وبعـدها ألبس مـلابس الجـامعـة، وأتعـطّر، وأرقص هـذا المساء في السّاحة.

انعطفت إلى اليمين كي أخرج من تلك الحمأة. وهنـاك وجدتـه. كان منفرج السّاقين، مثبّتاً أخمص بارودته على حذائه ومثبّتاً عينيه على ضعفي. أنا متأكّدة من أنّي لو انعطفت يساراً لوجدته واقفاً عـلى الضفّة الأخرى وقفة القدر التعيس تلك.

تابعت تخويضي في الماء. كان انعطافي قد جعلني عـلى خطّ مستقيم مع جثّة الضّبع. وعرفت أنّني لن أنجح أبداً في العبور دون أن أرتطم بها. فجأة اتّسعت وتضخّمت وسدّت عليّ الـطريق. هذه المـرّة صار رعبي وترفي قبراً. تقدّمت في الوحل والأسَن والطّحـالب، وأنا مـوقنة تماماً أنّني سأرتطم بالجثّة كيفما جنحت، ومباشرة بعدها سأموت.

كان ذلك كابوساً. لقد سلخت جلدي ذلـك العصر وأنا أستحم. لم أذهب إلى الشـلّال. خشيت أن ألتقي بنـاصر في طـريقي إليـه.

اكتفيت بحمامات المهاجع. وتلمّست بشرتي بيدي، في غياب المرآة، فأحسست تجاهها بنوع من الإعزاز. أحسست بانتعاش وحرّيّة، وبأنّي مستغنية تماماً عن أنواع الملّيّنات والعطور الّتي بدت ضروريّة في وقت ما.

تجمّعنا في ساحة المعسكر عند المساء. كان العازفون منّا قد بدأوا يدوزنون آلاتهم، وهي العود والكمان والنّاي والدربكة. وتوافد الرّفاق فجلسوا هنا وهناك على الأرض المتقلّبة أو المقاعد الهرئة. ثمّ تداغمت أصوات الآلات وأصواتنا، وأصوات المدى البعيد، والمذياع بيد أحدنا، والقصف المتبادل على الجبال الجنوبيّة الغربيّة... وبدأت الحركات والتقاطعات والمناقشات.

لم ينفذ أيّ شيء من هذا إلى أعماقي بقدر ما نفذ إحساسي بالنّظافة. وقد وصل إلى الدّاخل الجواني، ثمّ ارتدّ من هناك إلى الخارج على شكل أمواج متتابعة من الإقبال على الرّقص والغناء. أمواج رشيقة، خفيفة مثابرة، لا زبد فيها ولا هيجان، ولا تملك أن تهمد أو تستكين.. تنتقل معي، وتدخل في أمواج أخرى قادمة من كلّ مكان، ومن كلّ بدن.

حانت منّي التفاتة ورأيت القمر في كبد السّماء. ثمّ نظرت إلى خليط الحياة الطّافر في السّاحة، وانقبضت نفسي. طلع رعد بوجهي فجأة، وصاح: «ما رأيك في شوية دبكة؟ يالله عند الآلات!» التقط معصمي وجرّني وراءه. لم أدرِ ماذا أفعل بالتحديد فانجررت معه. كان يلتفت يمين يسار. وأمام العازفين سألني باستغراب متضايق: «أين هو هذا المتسوّل العجوز؟»

عندها صرت واعية بانقباضي.

جرّني رعد وخرج بي من السّاحة. «أنا أعرف أين ألقاه». لم نرقص. وبعد منعطف صاعد، وربدتين صغيرتين، أشرفنا على منكب ناصر المنحني ورأسه المستغرق في القراءة. أجل: القراءة في ضوء القمر.

«تعرف أنّك غراب حقيقي؟» هتف رعد به، وهو ينتزع المجلّة من يده ويرميها بعيداً.

نظر إلينا مبتسماً. أزاح نظارته عن عينيه ووضعها في جيب سترته.

قال رعد: «يمكن سهرتنا اليوم آخر سهرة لنا قبل العمليّة، وأنت قاعد تتثقّف هنا؟» ثمّ قال: «هذا إذا افترضنا أنّنا سنرجع ونلتقي بحضرتك مرّة ثانية».

ظلّ ناصر مبتسماً. كان جالساً على صخرة مستوية. تلحلح إلى الطّرف ليفسح لنا مكاناً. جلس رعد، وبقيت واقفة. رحت أتفرّس فيهما، وأنا بمنجاة من الملاحظة لأنّ القمر ورائي.

«أنا مشتركة معكم!» هتفت بإصرار هادئ.

«ستشتركين معنا،» غمغم ناصر، مبرداً توقّعاتي لمعارضته.

لأول مرّة في حياتي أحسّ هذا الإحساس بفرديّتي. أنا أعرف الاستقلال منذ زمن بعيد. لكنّي لا أعرف الفرديّة، وذلك ما يميّزني عن المجموع. وضعت إخوتي وعائلتي على مسافة أمان من حياتي، وصرت سيّدة نفسي، ولكن ما هي نفسي؟ عندما قال ناصر ستشتركين معنا، أحسست أنّي صرت نادية، وأنّ اسمي يدلّ على معاني لا يدل عليها عند أيّة فتاة اسمها نادية، أو اسمها أيّ شيء. وأحسست بالامتنان له، بأنّي يمكن أن أتبعه بلا خوف. بعد الآن، لن أكون جردلاً في ناعورة دوّراة تغرف الأوهام.

هبط ناصر عن صخرته وتناول المجلّة من بين سيقان عوسجة ضخمة. رحت أتأمّله بعرفان مستتر. لم يضايقني أنّ هذا الغريب أمسى الآن يمتلك حرّيّة اتّخاذ القرارات بشأن حياتي. على العكس، أحسست أنّ شيئاً كبيراً سيأتي مع المستقبل، وأكون أنا وهذه البلاد كلّها سعيدتين به.

كان يقول لرعد إنّ في المجلّة الفرنسيّة مقالة إحصائيّة عن ممارسات المخابرات الأمريكيّة. هو لم يكن مهتمّاً بكم رئيس دولة اغتيل أو أطيح به، ولا أساليب الخطف والقتل والنّسف، ولا بالأموال المفزعة الّتي تغدق على أحزاب وشخصيّات، ولا بتعاون المخابرات الأمريكيّة مع المافيا وتجّار المخدرات...

صاح رعد نافد الصّبر: «قل بماذا أنت مهتمّ إذن!»

«بنا نحن،» تمتم ناصر. «نحن أعدى أعداء تلك المخابرات».

صرخ رعد بضيق: «يعني هذه المعلومات البدائيّة هي الّتي أبعدتك عن السّهرة!»

تفرّس ناصر فيه نصف مفتوح الفم. ثمّ أطرق وكأنّه قرّر عدم الاستمرار في الحوار. مشينا صامتين. عند مشارف الخيم جفل فجأة. أمسك بزند رعد وتمتم: «يجب أن أقابل قائد المعسكر».

انطلق إلى اليسار. تابعنا سهرتنا تلك اللّيلة القمراء. غير أنّي لم أشترك في رقص ولا أغانٍ. وراح فرحي بالنظافة يخبو ويفتر، حتّى رأيتني في حوالي الحادية عشرة متمدّدة على فراشي بين تلافيف النّعاس.

لن أقول إنّ حدساً سماويّاً أيقظني في الرّابعة صباحاً. خرجت من خيمتي إلى شلّال عين مرداس. لن أقول إنّ حدساً سماويّاً مماثلاً قد

أيقظ ناصر من نومه كذلك. لن أقول إنّ طفلة البراري الّتي عشقت النّحل والأزهار قد نهضت من نومها لترى كيف يهلّ الفجر على أحبابها، وتقول لهم: صباح الخير.

وصلت إلى الشلّال خلال خمس دقائق، بسبب العتم. هو نبع داخلي، جوفي، محاط بجدران الأرض، الّتي انفتحت له فأفسحت مكاناً للماء أن يمضي فلا ينحبس، تماماً مثلما ينفتح القلب فيمضي الدّم إلى سائر أنحاء البدن. أنت تصل إليه قبل أن تراه.

وصلت ورأيت ناصر. كان مديراً ظهره للطّريق، يقف على بلاطة ويمسح جسمه العاري بمنشفة. طبعاً عصف بي الحياء. لكن فرديّتي أمسكت بي.

لم يكن التوقّف سهلاً علي. وقد اضطررت للتشبّث بصخرتين ناتئتين إلى يساري لئلا أفرّ من المشهد. وصار صوت الشلّال حاضراً في أذني.

لم يخطر لي أنّ جسم ناصر نحيل بهذا القدر. قلت إنّني بسبب الظّلام لم أره جيداً. وكدت أشكّ في أنّه هو...

لم يهملونا. لم يهملونا. ما إن لبس ناصر ثيابه حتّى بدأت الكارثة. رأيت ما يشبه شاشة مبهمة على الأفق الشّرقي، فعرفت أنّه الفجر. وعلى تلك الشّاشة رأيت الحوّامات.

مليون حادث انفجر في لحظة واحدة مع انفجار القنابل وأزيز رصاص الرشّاشات. الحوّامتان الأوليان هما اللّتان رمتا القنابل. ولمّا خرج رفاقي، إخوتي، من مهاجعهم، لمّا خرج من بقي حيّاً، هاجمتهم الحوّامتان الأخريان بالرّشّاشات. كان الجنود جالسين فيها كما يجلس الأطفال في المراجيح. اثنان من كلّ جانب، وسيقانهم

متدلّية في الفضاء. كأنّهم في نزهة صباحيّة يشاهدون انبلاج الضّوء على الأزهار.

ستّة أشهر كانت قد مضت. كأنّ أيّامها اندفعت بلا وعي نحو قدر محتوم هو أن تجمع في رحم واحدةٍ لحظتي الموت والحياة هاتين، لحظتي الفجيعة والحبّ.

عندما سمعت انفجار القنابل ارتددت بلا وعي نحو ناصر. وكان هو يسابق الرّيح في ذلك الممرّ الأعوج، فالتقينا معاً. لا أدري كم طال غياب وجهي في صدره. ارتجفت طويلاً بالرّعب والتّكذيب. أحسسته واقية وسربالاً، وأنّ هذا الجسم النّحيل المتين هو كلّ ما بقي لي في تلك اللّحظة. وأرسل بدنه رعشات خفيفة صلبة لامست بدني.

انفصلت عن ناصر. لكنّ يده بقيت ممسكة بيدي. نظر إلى المخيّم نظرة يائسة. ثمّ إليّ. بدا لي مثل وحش حاصرته الأسيجة فجأة، وعرف أنّه لن يستطيع الوثوب.

«قلت لهذا الغبي، البارحة قلت له. أنت ورعد ضحكتما عليّ. وهو ضحك. قلت له: أخرجنا من هنا هذا اللّيل. قلت له اقرأ المقال في المجلّة وأنت تعرف».

لّما التفت إليّ محبط اللّغة، علقت أعيننا بعضها ببعض. أحسست أنّه بحاجة إليّ وأنّي بحاجة له. وكان مايزال ممسكاً بيدي. شددته باتّجاه المعسكر، فهرول خطوة ثمّ وقف: «سيعيدون الكرّة!»

«ورعد!» هتفت به جَزِعة مؤنّبة.

لم يتردّد. ذلك هو ناصر. الموت أو الوفاء. لم نكن مضطرين إلى الخوف في الواقع، فالحوّامات لم تعد. لكن إقدامه اكتسب معناه. ولم

نكن مضطرين لأعمال الإغاثة، فالرّفاق من المواقع الأخرى كانوا قد وصلوا بإسعافاتهم الأوّليّة، ثمّ بالسيّارات.

أربعة من رفاقنا قتلوا. وقطعت شظية عضلة أخي رعد. وجرح ستّون أو سبعون من رفاقنا ورفيقاتنا. أمّا المعسكر فقد تقوّض بالكامل. وعند الظهر كان كلّ شيء غرزناه هناك أو أقمناه، أثراً بعد عَيْن.

«بدأ العدّ التّنازلي لنا»، تمتم ناصر وهو يقود السيّارة إلى بلدتنا ورعد موكئٌ ظهره على زجاج الباب الخلفي.

نظرت إليه غير فاهمة. في ذينك اليومين، يوم الغارة ويوم الرّجوع إلى البيت، عدت لا أفهم شيئاً. رأيتني مشوّشة وحائرة. ورأيت العالم الّذي اتّسع حولي خلال ستة أشهر، آخذاً بالتضيّق والتّلاشي. ناصر نفسه بات مشوّشاً ومحيّراً، بعد أن كان بالنّسبة لي، رغم نفوري منه، أشبه بالواقية والسّربال ضدّ الجنود.

«لا تكن غراباً». هتف رعد وهو يريح قدمه الجريحة على حاملها في مؤخرة السيّارة.

صمتنا برهة. وبعدئذ قال ناصر: «أنا لا أقول نحن انهزمنا، يا ذكي؛ إذا كان هذا ما فهمته من كلامي. نحن لا نهزم. في أدنى الحالات، يمكننا أن نعيش أحلامنا وطموحاتنا في حياة مدنيّة عادية. أنا أقول إنّ الصّراع سينتهي خلال فترة وجيزة».

لم أعد أسمع ماذا قالوا بعدئذ. أنا امرأة تحبّ العيش، لا الحديث عنه. وعلى طول الطّريق المتعرّج بين الأشجار والصّخور، تعارم حسيٌ بأنّي قد خسرت اختياري الأوّل لحياة تشعرني بأنّني أنا. صحيح أنّي كنت فتاة مستقلّة، ولا سلطان لأحد عليّ. ولكن ما نفع

الاستقلال، إذا لم أكن سوى نسخة ممّن سبقوني؟

كنت في حضيض من البؤس والتّعاسة عندما وصلنا إلى بيتنا. ستّة أشهر وأنا أحس أنّ الأبخرة الّتي في ذهني تصير مطراً، وأنّ الرّكود والرّخاوة اللّذين كنت أعيشهما في بلدتي، وفي العاصمة، يفسحان الطّريق لسهم ينطلق بي نحو هدف جميل.

لم أكترث لرعد، ولا للأطبّاء والممرّضات، ولا لناصر بالطّبع. كلّ مساء، بعد أن ينصرف الجميع، كنت أنزل من غرفة نومي إلى سقيفة البيت المواجهة للمناحل، وهناك أجلس في ضوء القمر أو النجوم، وأفكر في المستقبل المبهم الّذي عليّ أن أرسمه وأبنيه. خشيت أن تكون هذه التّجربة قد أهرقت إقبالي على الحياة. خشيت ألّا تصادفني بعد ذلك تجربة بهذا الاستغراق، والتوتر، أمضي بها قدماً نحو حرّيّتي. لم أكن خائفة من شيء. فقط عانيت فراغاً هائلاً يتضاءل فيه ضوء القمر وتنحشر المسافات. وفي قاعه البعيد الخفيّ تتحرّك أشباح وخيالات وحوّامات وسواحل، وفيها يبرز وجه كامد يتّضح. يتّضح ويصير منيراً، ويبتسم ويحيّي، ثمّ يتّخذ مجلسه إلى جانبي على الرّخامة، وبعينيه المضطربتين وشفتيه المرتعشتين يغمغم لأذني: «نادية، تتزوجينني؟»

قلت له: «أتزوجك. لكن إخوتي لن يوافقوا».

- ٢ -

هل أحببت ناصر فتزوجته؟ أم وجدت طريقاً خارج تلك الشّرنقـة فسلكتها؟

لطالما سـألت نفسي هذا السّؤال المـزدوج وأنا متنقلة من دوّامـة إلى دوّامـة ومن صفـاء إلى صفــاء. أعـرف أنّــه سؤال مستحيـل. لا لأنّي عجزت عن معرفة نفسي، بل لأنّ الحبّ لا يمكن سبره ولا تعريفه. لم ألتق بـأحـد يمكنـه أن يشرح لي مـا هـو الحبّ.. إلاّ بكلمات طـائـرة وذهنيّة. ولم تفدني قصّة ولا كتاب.

سيكون نوعـاً من الكذب عـلى النّفس وعلى الـطّبيعة أن أقـول إنّ تلك المشـاعر البكـر، المشاعـر الّتي لا مثيل لهـا قطّ ولا تعوّض، قـد كانت كلّها وهماً وخيالاً. ربّمـا كان منبتهـا الوهم والخيـال. لكنّها هي كـانت حقيقيّة. فـإحـدى مفـارقـات طبيعتنـا أنّها تستجيب بـأصـدق مشاعرها وصبواتها لما هو بطبيعته وهم وخيال.

خـلال العامّ الأوّل تغـيّر كلّ شيء. انتقـل نـاصر إلى العـاصمـة. تـوقّفت المعسكرات. واختفى الجنـود. ونجحت في السّنة الثّـالثة من دراستي الجامعيّة. وتركت أهلي وتزوّجت.

كان شهر عسلي هو التّعرف على العاصمة من جديد، مـع ناصر. والتعرّف أيضاً على أهله البسطاء المتواضعين. يصير المكان آخر وأنت تجوبه برفقة من تحبّ. يصير له رونق آخر. وطزاجة أخرى. وبخاصّة الجامعة ـ بأشجارهـا المحلّقة في السّـماء، وأبنيتها القـرميديّـة العتيقة، وطرقاتها المفروشة بأوراق الشّجر.

لكن أوّل شيء على الإطلاق كان ثورة أخي رعد الضّارية. رعد أمسك بالرشّاش وصوّبه نحونا كِلَيْنا، في بيتنا. «تزوّجوا تموتوا»! قال لنا.

ردّ ناصر بهدوء: «إذا كان السّبب الخلاف الطّبقي، فأنا مستعدّ لكلّ شروطك».

صاح رعد بصراحة مذهلة: «لا أعرف السّبب. لكنّي أشم رائحة الخيانة».

صرخت أنا: «ماذا! نحن مزارعون، وترانا أفضل من سكّان المدن؟»

خرطش رعد رشّاشه وصوّبه إلى صدري: «ناصر طمعان فيك. أنت مغشوشة في تقدميّته».

ابتعدت عن ناصر تحسّباً. وصحت برعد: «أطلق النّار! أطلق، يا متحرّر يا مخلّص العالم!»

عاجلني بوجه متعالٍ ونظرة محتقرة، وحرّك رشّاشه إلى وضع عمودي: «أنا قلت: تزوجوا تموتوا! وليس تموتوا بالأوّل. لكن أنا حذّرتك. أنت الآن لا ترين إلاّ القشرة من شخصيّة ناصر».

بالطّبع لم يطلق رعد النّار. هذه الضّخامات توجد في صناعة الأفلام فقط. وعندما توجد لا يعود المرء يرى ضرورة للكتابة.

رأيتني منقطعة عن إخوتي. وعن مئتين أو ثلاثمئة شخص هم أقربائي وأنسبائي. لا أحد يمكنه أن يتخيّل هذه الكتلة إلاّ عندما يصطدم بها. إنّهم مثل حصى متناثر هنا وهناك، وأنت لا تكترث بوجوده. حتّى إذا اجتمع، حصاة لحصاة، رأيت أنّك تواجه جبلاً. وقد اجتمعوا، ضدّي.

جئت أطالب أخوتي بمبلغ شهريّ. فاجتمع الثّلاثـة معاً لأوّل مـرّة منـذ ثـلاث سنـوات. قلت لهم إنّي أريـد بعض حصّتي من مـيراث والدي. وردّ رعد بسخرية: «تتزوّج يهوذا وتصرف عليه.»

قلت إنّي أريد أن أعيش معه لأنّي أحبّه، لا لأنّه يصرف عليّ.

«متحرّرة، شيء تمام، ما شاء الله»! نـبر رعد بسخـرية. «بـودّك أن نصرف عليك أنت وهو».

قلت بهدوء: «الّذي أطالب به هو حقّي، لا منّة منكم. رحمـة الله عليه، كان أبي مثلما هو أبوكم. بودّي ألف دولار كلّ شهر.»

ردّ عابد بخفوت: «لن تحصلي عـلى فلس واحد. طلّقيـه، وخذي ما بودّك».

لو قام رعد وقتها وصفعني على وجهـي لوافقت عـلى مئتي دولار. أن تخوّض مع الرّجال، شيء مثـل أن تخوّض في المستنقعـات. كانـوا ثـلاثتهم رابضـين عـلى صـدري. فقط لـو عـرفـوا. ولحسن الحظ لم يعرفوا. وإلّا لسلبوني انتصاري. المجتمع الّذي خلخل كياني بالخوف من ذكـورتهم، قد زرع في كيـانهم الرّعب من العيب، العـار، الّذي يمكن لأنوثتي أن تطرشه على وجوههم.

قلت لعابد إنّني لم أجئ للمناقشة والمعاركة. إذا لم يعـطوني حقّـي فسأرفع دعـوى وأجرجـرهم إلى العاصمـة، وأوكل أحسن المحـامين. صمتوا. وتبادلوا النّظرات. لم يخطر لهم أنّني قد أمضي في تهديدي إلى ذلك الحدّ. باغتهم أن يروا أنفسهم منزلقين من عار إلى عار أفـظع. أوّل الأمر، أرادوا لملمة الهوان الّذي سبّبه زواجي من ذلك الغريب. لكن مذلّة المحاكم جعلتهم يعيدون حساباتهم.

لن أقول إنّ المال ليس مهـمّاً. هذا قـول فارغ. لكنّ الأهمّ يـومها

كان شعوري بأنّي استطعت أن أتصدّى للخوف. لم تذهب سدى تجربة المستنقع ووجبات الحيّات المشويّة والثّعابين. لقد كسرت الحاجز. وقال ناصر بفخر: «أنت تعيدين إنتاج شخصيّتك من جديد». وطفق يحدّثني حتّى أسكرني: عن أشكال الاستلاب الّتي تهدر شخصيّة المرأة، وحياتها، وقدراتها... عن الأب والأخ والزوج والزميل، الّذين يطمئنون لقوّتهم فقط عندما تضعف امرأة أمامهم.

كان ناصر كبيراً كفكرته تلك. ويستحيل أن يكون الرّجل كبيراً وتكون أفكاره صغيرة. وناصر كان كبيراً. منذ يوم القنابل والرشّاش والدّغل، وهو كبير. وحلمه كبير. ولطالما استحضرت تلك الذّكرى الأولى إلى مخيّلتي، ورأيتها تنساب بلا توانٍ عبر مشاعري وأحاسيسي وخلاياي.

فكّرت فيها، وأعدت التّفكير، ورأيت أنّ ناصر على الدّوام كبير. الغلط الوحيد أنّي لم أنتبه يومها إلى ذلك. لأنّي لم أنتبه إلى نفسي. لم أعرف من أنا، وما أنا. كانت هناك ترسّبات. ظلّت تتجمّع وتتّسع وتعلو، وأخيراً رأيتها. ووصلت إلى لحظة الاعتراف.

وقال لي ناصر: «نادية تتزوّجينني»؟ وقلت له: «أتزوّجك»...

تناول يدي ذلك اللّيل، وفرشها بين راحتيه. شدّ عليها. لم أعرف أنّ يديه طحنتا أصابعي وراحتي إلاّ بعد أن رفع يديه عنهما. ثمّ دخلت مباشرة، دخل صدري وظهري، في كسّارة بندق جديدة هي صدره وذراعاه. هكذا همّ الرّجال، قلت لنفسي. وبدأت أعيد النّظر في مسلّمات الحياة.

كان ناصر عاشقاً شبقاً. وقد أسلمني إلى عالم النّسوة بالطّريقة نفسها الّتي ضمّني فيها إلى صدره وأدخلني عالم الحبّ. قال إنّ هناك

عرساناً «يقسّطون» الألم على عروساتهم، مراعاة لشعورهن. فيطلبونه بلا جدوى أسبوعين أو ثلاثة. أمّا هو فرجل يكره أنصاف الحلول. يكره إمساك العصا من الوسط. منذ اللّيلة الأولى انفجر ذلك النّقاب، الغشاء، انفجر شذرات ومزقاً. وانفجر معه بركان من الألم السّعيد، من النّشوة المريرة. اختلطت شظايا الشّعور بشظايا البدن بشظايا صوتي الصّارخ.

كان مستحيلاً أن أتلقّاه وهو آت إليّ بكلّ تلك الجروح والحرائق. وبكلّ ذلك العطش. أخذ يشربني، وفي الآن نفسه يشعل النّيران فيّ. لم أكن أعرف ماذا عليّ أن أفعل. ولا كيف أفعله. وجدت نفسي مشلولة تماماً بما يفعله هو، بما تفعله كتلته الخافقة السّاحقة الدّافقة. لم أدر من أين جاء كلّ ذلك الألم وحقنني. لم أدر لِمَ حاول جسدي الإفلات والهروب والغياب. لم أدر أيّ معدن انصهر داخلي وغدا سيلاً من اليأس والإحباط.

وكان مستحيلاً أن أدفعه بعيداً، وجسمي يهتف له. ألف نداء وضراعة وشبق. كلّما دفعته، عدت وتركته يستردّ مكانه بلجّة أكبر. أخذت أجد حركتي في حركته، وتردّداتي في تردّداته. ورحت أشهق مع لهاثه، وأئنّ مع أنفاسه. لم أدر من أين نبتت لي كلّ تلك الأجنحة. قادتني عبر الألم وأرجحتني في غيبوبة اللّذة. لم أدر كيف أمكن لجسدي أن ينفلت ويحتلّ مواقع من جسده ويضغط عليها. ولا كيف انشقّ المدى بعد المدى، عبر النّار والنّزيف، نحو نشوة الطّبيعة.

دخل ناصر فيّ بعد ساعة. وعندما انكفأ قليلاً، ظننت أنّ الأمر انتهى. ثمّ أقبل عليّ من جديد. هذه المرّة دون مقدّمات. وكنت مشلولة بالألم والرّعب: ألم يفرم لحمي بالنّار القاطعة، ورعب من أن

أفشل مع ناصر فأخذله. دون قبول مني، تصلّب بدني. لم أرده أن يتصلّب. لكنّه انفصل عنّي وأعلن استقلاله: رفض الألم، فرفض ناصر.

وكان عليّ أن أقهر جسدي.

انقفلت عيناي. وغارت شفتاي داخل أسناني. أدركت أنّ ناصر يستميت لأجل الدّخول مرّة ثانية؛ ولا يستطيع. ضغط عليّ كما كانوا يضغطون بجذع الشّجرة على بوّابة قلعة ليخلعوها. أحسسته يصارع في عالم موحش. ولم أعرف ماذا أفعل لأجله. تعذّب وطحر؛ وتحرّكت مثلما وجّهتني يداه وجسده. فقط، حاذرت أن لا يحسّ بدموع ألمي.

حصل الاقتحام الثّاني أخيراً ـ بطيئاً، بطيئاً وضيّقاً. وانفجرت حرائقي القاطعة من جديد. تشقّق لحمي الغضيض. لم أفهم ماذا يحدث. حميّات سائلة زحفت في شقوق لحمي، وفحّت ألسنتها على باطن فخذيّ. تحمّلت. وبقيت كما أنا. تلقّيت بصمود.

ثمّ غبت عن كلّ شيء.

حتّى الآن لم أتذكر كيف أغمي عليّ. تذكّرت فقط صوت الغرغرة في حلقي. صوت كالحشرجة تصيب الإنسان في كابوس. حشرجة يعقبها الاختناق مباشرة، ثمّ الموت. وقبيل شهقة الحياة الأخيرة، أحسست أنّ ناصر قد أمسى وكيلاً شرّيراً لكلّ مؤسّسات الدّمار والألم على وجه الأرض.

أفقت وناصر يهزّني هزّاً عنيفاً ويضربني على خدّيّ. أحسست أنّي أطفو من تحت الغمر. وإذ ملكت وعيي رأيتني في مستنقع. قبل الإغماء كنت واعية بتعرّق كالمطر، نضح من مسامّ ناصر بصورة خاصّة، ومنّي أنا التي لا أعرق أبداً. تفحّصت مُضطجَعي ورأيت

الدّماء تطرشه. والماء الّذي سكبه ناصر عليّ قد أغرق الفراش والوسادة. رأيت ناصر يبكي ويضحك. ابتسمت له بعناء وغباء. أسرع يضمّني بلهفة طفل يطلب الغفران، ويخبرني بسعادة لا توصف: «نجحنا! نجحنا! رجولتي وأنوثتك. نجحنا في الامتحان! هذه الذّكرى ستبقى إلى الأبد! ستجمعنا إلى الأبد».

قلت: «ناصر.. اهدأ شويّة! الشّراشف لازم لها تغيير. وأنا...»

«طبعاً، طبعاً»، هتف هو. .قفز عن السّرير كالفهد. وبلمح بصر نثر الشّرشف من تحتي فدحرجني إلى الطرف. لملم كلّ البياضات، وأسرع بها إلى الحمّام.

عاد إلى الخزانة وتناول منها بياضات جديدة. كيفما اتّفق أعاد ترتيب السّرير، جلس على طرفه وأشعل سيجارة. «لماذا أنت بعيدة»؟ هتف بي.

«لأنّك أنت رميتني هند». مددت ساقيّ باتّجاهه.

صمتنا ـ أنا لألتقط إيقاعات جسدي وأهدئ الالتهاب المضرم فيه، وناصر لكي يمدّ يده اليسرى ويداعب لحم ساقيّ من جديد!

عندما أطفأ سيجارته كانت شهوته قد احتدمت مرّة أخرى. وشهوتي. «لن يكون ألم في المرّة الثّالثة» قال لي بيسر. وإذ كان كلامه صحيحاً، فلأنّ الألم كان قد تغلغل في خلاياي وتآلف معها. لأنّ اللّهيب كان قد صار أصلاً.

بعد زمن، ربّما أسابيع، سألت ناصر عن ذلك اليوم. سألته إذا كان ضروريّاً كلّ ذلك العنف والتّقصيب. لم يرد. سألته لماذا أحبّني المرّة الثّالثة، بعد أنّ غيّرنا الشّراشف والوسائد، وأضاف جمراً على جمر في ذلك المكان النازف المثخن.

نظر إليّ بعينين متحيّرتين: «المشكلة في إزالة البكارة. معهم حقّ. إذا تأخّر الرّجل، هو نفسه لا يعود يحترم نفسه».

هتفت: «يا ليت المرأة خلقت من دونها. كـلّ ذرّة فيها تعـادل طنّاً من الوجع».

- «كـلّ ذرّة فيهـا تعـادل طنـاً من اللّذة و. . . من، من الكـرامـة والفخر!»

- «أوسخ شيء في المرأة. . كلّها على بعضها».

التفت إليّ بنصف ابتسامة وبضيق كامل: «أنت تـظلّين طفلة» قال وهو ينهض إلى المغسلة. غابت الابتسـامة وبقي الضّيق. أدركت أنّني كنت حمقاء مرّة أخرى وأسأت إلى مشاعره. حرّكت القهوة بعصبيّـة، فانكبّ بعضها على النّار. انطفأ بعض النّـار، وصعدت زوبعـة بخار صغيرة إلى وجهي.

صوبن ناصر يديه ومَسْوَكَ أسنانـه. غادر المـطبخ. صببت القهـوة وتبعته إلى الصّالون. كان صـامتاً يـدخّن سيجارة. جـذعه منحن إلى الأمام فوق ركبتيه.

وضعت فنجانَي القهوة عـلى الطّاولـة وجلست عند قـدمه. أزحت مرفقه عن ركبته واتكأت عليها: «أنا آسفة، ناصر. أنـا أسأل لأنّـك أستاذي. أريد أن أتعلّم».

نظر إليّ بتمعّن ونصف ارتياح: «هذه العمليّات المتتابعة ضروريّـة لتـترك وشماً عـلى روحك. أنت الآن ارتبـطت بي إلى الأبـد. حتّى لـو أردت أن تتركيني، لن تقدري. أنت الآن ملكي، بالكامل».

رميت خدّي على فخذه وشدّدت حالي عليه. قلت: «أنـا أحببتك

قبل عمليّاتك معي. أحببتك لأنّك ناصر. لا تشبه غيرك. مثلي أنا. أنا لا أحبّ أن أشبه غيري».

«هذا كلام الكتب» قال ويده تحمل فنجانه، وظهره يرتدّ إلى الأريكة. «من ناحية الرّجال، الرّجال كلّهم متشابهون».

اندفعت لأقول له إنّ كلامه سخيف. لكنّني أمْسَكْتُ. كانت أحواله متوتّرة في تلك الأيّام. زواج خاطف وبلا حفل. تسعمئة دولار من إخوتي، تحرجه. انتقال إلى شقّة صغيرة في العاصمة... تحوّل بمقدار مئة وثمانين درجة من العمليّات إلى السّياسة. الحالة الأخيرة كانت الأقسى. كان ناصر في الثّانية والثّلاثين - سبع عشرة سنة منها مضت وهو يقاتل ويناضل لأجل عالم جديد وإنسان حرّ. وها هو يصير إلى مجرّد صانع للكلمات والأفكار. بينما، مثلما قال، القتلة يصنعون الأحداث والمصائر، ويفرضون الكلمات والأفكار الّتي يريدون.

لم أعرف من هم هؤلاء القتلة. على نحوٍ ما، ارتبطوا في ذهني بالجنود، كلّ الجنود، من كلّ صنف وملبس. الجنود الّذين رأيتهم يطأون أزهاري في البراري، والّذين أراهم في التلفزيون يجوبون أصقاع العالم، والّذين يرتدون الخوذ والقبعات، وينتصرون دائماً على ناصر ورفاقه.

غير أنّهم لم يجثموا على خيالي وذاكرتي، كما هو شأنهم مع ناصر. كانوا بعيدين عني، رغم قربهم منه. لقد شغلتني شواغل حياة جديدة. ولم تترك لي وقتاً لأكثر من متابعة دراستي في الجامعة.

لقد امتلك ذهني وقتاً مديداً. هناك شواغل تملأ الخيال والذّاكرة، وشواغل لا تملأ إلاّ اليدين والحواس. وشواغلي كانت من النّوع

الثّاني. فرغم أنّ ناصر لم يمدّ يده إلى دولاراتي فقد كان صاحب ولائم لا تعدّ ولا تنتهي. وتعينّ عليّ أن أخلص من وليمة لأغرق في وليمة أخرى. لقد رفض رفضاً باتاً أن أستقدم شغّالة على حسابي، لأنّ ذلك مخالف لقناعاته الإنسانيّة. وكان كرمه ينبوعاً دافقاً لاعتزازه بنفسه.

في السّوق اصطحبت معي وجه ناصر وقامته. لم أكن معتادة على الغبار والوحل والزّحام ونهيق الحمير. وأحسستني بحاجة إلى حمايته. وربّما أيضاً إلى شيء من الرّونق أراه في طلعته وحركته فأتحمّل هذه المشاوير المسلية ولكن الفارغة.

في البيت اختلفت الحال. صحيح أنّ رمي الخُضَر في المجلى تمهيداً لغسلها، أو الجلوس حولها بسكين مسلولة، ينتزع من الذّهن كلّ انشغال. لكنّه لا يضع فيه شيئاً على الإطلاق. الذّهن يبقى فارغاً. مع ماء الصّنبور الدّافق، أو السكّين الهاوية على قطعة اللّحم، يصير مثل بالون سميك راح يفقد هواءه بطريقة مجهولة، وينكمش. ومع الطّنجرة الباخرة، يصير هو الآخر طنجرة تبخير وتبخّر حتّى «يستوي» ما في داخلها وينجبل.

كيف بعد هذا لا تفرّ من الذّهن أسراب النّحل وشهد العسل؟ وكيف لا يضيئه وجه أبي المغيِّب الحنون؟ كيف لا تخترقه نظرات المعجبين في السّوق والجامعة؟ كيف لا تعبره الوجوه والذكريات والأفكار والحوارات؟

كلّ الّذين اغتنموا الفرصة وطرقوا جدران ذهني، أو نفذوا عبرها إلى مراياه، كانوا بعيدين عن حياتي الزّوجيّة. صحيح أنّ هؤلاء قلّة، فأنا امرأة قليلة الأصدقاء، لكنّهم كلّهم نفذوا. قلت لناصر إنّ هذا

غريب. وقال هو: «أنا لا أفهم! كيف تنشغل يداكَ بشيء، وينشغل بالك بشيء ثانٍ ما له علاقة»!

أكثر ما استعدت كان شهور المعسكر العظيمة. وعندها كنت أحسّ أنّ الجنود وبال على البشريّة كلّها. لو تركونا هناك لعشنا في بيت ساحته عشرة كيلومترات، ولما أخذ إعداد الطّعام وأكله كلّ هذه السّاعات النّشطة من حياتي اليوميّة. تلك الخيم! كانت أعشاشاً للحرّيّة والسّعادة، وللحياة النّقيّة. شرحت الفكرة لناصر، وأضفت: «كانوا عملوا لنا سريراً على قدّنا عند منعطف الشلّال».

عبس وقال: «أنا لا أنام معك إلّا بين أربعة حيطان».

ظلّ شلّال عين مرداس فاتحة لأغاني الرّوح. ألم أتحمّم بمياهه وأتحمّم إلى أن جاء ذلك اليوم وتحمّمت بذراعي ناصر؟ من يومها وذراعاه انسكابات. رغم الألم والخوف، كنت أطفر وكأنّني مازلت داخل تلك المياه المنشذرة، الّتي أنزلها الحبّ من الأعالي لتغسل بشرتي. ولأنّ جسده لم يكن يسمح لجسدي بأيّة حركة فقد اعتبرته سيلاً يلفلفني ويسربلني.

قال ناصر: «هذا الولد هلال مطر، غليظ! وعقله طائر».

قلت: «لا تزعل منّي إذا حكيت بصراحة. أنت بالسهرات والولائم تحاول التّعويض عن حلم المخيّم. وأخاف أنّها ستخيّبك خيبة ملعونة».

هزّ رأسه مؤكّداً صحّة كلامي. وفي اليوم التّالي كنت أولم لتسعة أشخاص.

هذا الديدن كانت له نتيجة غير منتظرة. في البداية اختلقت أعذاراً. إنّما ما فائدة الأعذار؟ عندما تكون النّتيجة انكماش الوقت

الّـذي يعطيـه ناصر للحبّ، وتنـاقص حالات الاحتـواء والتحمّم إلى «مقتطفات»، فلا ذريعة تريح.

قلت: «صرت تبخل عليّ بالحبّ يا ناصر. خذ بالك. أنا امرأة لا تفرّط في حقوقها».

قـال: «الجنس من يـوم يـومـه زمنـه قصـير. المهمّ الانسجـام. والتّفاهم في الحياة. والتّفكير في المستقبل.» غير أنّه في ذلك اللّيل ظلّ يحبّني حتّى الثّالثة.

لم يكن هذا كلّ شيء. الولائم فهمناهـا. إنّما المسـاءات الأخرى، كانت كأنّها الوجه الآخر للقمر: قـاتمة، سـاكنة، بـاردة، صامتـة. لا أتكلّم عن أوقــات صنـع القهــوة، أو الانتبــاه لــترتيب البيت، أو الانشغال الموقت المخـادع بهذا الأمـر أو بذاك. أنـا امرأة لا تستـطيع هذه الأحابيـل أن تشعرها بأنّ الحياة عـلى مايـرام. في البدايـة، كنت أنتزع الجريـدة من يديْ نـاصر، مثلًا، وأمنعـه من قراءتهـا. أو كنت أطفئ التلفـزيون، أو أقف فـأغطي شـاشته. أو أرفض صنـع القهوة حتّى يقوم هو ويرافقني إلى المطبخ.

ولكن مـا الفائـدة؟ تقبّل نـاصر كلّ محـاولاتي لتحـريكـه. إنّمـا مـا الفائدة؟ صار واضحاً أنّ شيئاً ما قد همد. وهـذا ما لم يعـترف هو بـه إطلاقاً. نشأت حالة فتور، وعطالة. وهذا ما رآه هو طبيعيّاً، ورأيتـه أنا هلاكاً.

قال: «يا الله اعملي همّة، وهاتي شويّة أولاد، لتكمل حياتنا.»

قلت: «أجيء بأولاد، وحياتي الآن كاتمة على نَفَسي؟ لا والله!»

لم يعبأ ناصر على الإطلاق بحالاتي واحتياجاتي. ظلّ مقتنعاً اقتناعـاً لا يتزعزع بـأنّ الزّمن كفيـل بتذويبهـا من ذهني، مثلما أذاب المخيّم من

ذهنه. لهذا السّبب، رحت كلّما خلوت بنفسي أستحضر أصنافاً وأصنافاً من الوجوه والذكريات والأفكار والحوارات. آتي بأناس غابوا من سنين بعيدة، وأناس تستغرب كيف يخطرون فجأة على البال، وأناس أحببتهم ولكن لا يمكنني السّفر إليهم.

خلال أقلّ من عام بتّ أعتقد أنّ ممارسة الجنس ذات زمن قصير فعلاً.

قلت لناصر: «كنّا من قبل نقضي ساعتين. الآن نصف ساعة.»

وردّ هو باقتضاب: «هذه هي طبيعة الحياة.»

قلت: «لكن أنا أريد ساعتين.»

التفت إليّ بدهشة حقيقيّة: «لماذا؟ ألا تنبسطين؟ ألا تحصّلين حاجتك من اللّذة؟»

قلت: «بلى» وأنا غير متأكّدة. وأضفت: «ليتنا نُمضي معاً وقتاً أطول.»

وقد حاولت أن أعرف كنه شعوري فعلاً. جعلت أراقب. وإليكم هذا الموجز:

يستغرق التّمهيد للحبّ عشر دقائق، نكون خلالها قد تعرّينا. وتكون يدا ناصر وشفتاه قد استنفرت خلاياي. بعدئذ يحلّ محل ثيابي الخوف. ناصر لا يرى هذا النّوع من الثّياب. يستمر بنبض أسرع ووتيرة أحمى. عشر دقائق من الالتحام ومحاولات الاقتحام. أشنع عشر دقائق في العمر. كلّ ذكريات اللّيلة الأوّلى تنهمر وتهطل على أعصابي. ليس هذا فقط، وإنّما حالاتها أيضاً ـ الألم، الحريق، الاختناق، النّزيف. يتصلّب جسمي وتتصلّب قنواتي. ناصر سعيد جدّاً. كلّما ضاق العبور اتّسعت اللّذة والسّعادة. وأنا أكون عندها ضيّقة. «كأنّك مازلت عذراء»! يقول لي فيما بعد، بنبرة إنسان أثملته

سعادة حظّه. يدخل؛ وإلى أن أتمكن من تحمّـل جرح بـدني القديم، يكون ناصر قد وصل على صهوتي إلى قمّته الرّاعحة.

عنـدها يهبّ جسـدي كأنّ بـه مسّاً. تنبت منـه الأيادي والأصـابع والأظافر، وتنسعر باحثة عن أيّ فتات تلتقطه عن ذلك الطّريق الّذي وصل ناصر إلى نهايته.

في لحظات انفجار البارود تلك، يكون هو قد بدأ من جديد. على مهله. على راحته. يتلّوى جسدي ويطلق النّـداء تلو النّداء. يتمـرّغ في جسد ناصر. يهـارشه. تنفتـح قنواتـه وقِرَبـه. ولكن. . . في تلك اللّحـظات المارجـة، يكون نـاصر في داخلي صغيـراً. صغيـراً حتّى لا أحسّ بلطمتـه إلّا عـلى جـانب واحـد. أين ذلـك الاخـتراق السّـابق الجسيم؟ أين الكتلة المـارجـة؟ أهـو الّـذي ضؤل، أم أنّني أنـا الّتي اتّسعت؟

وفجـأة: تمتلئ الجـوانب كلّها بـالكتلة الّتي صارت جسيمـة. يمـلأ ناصر النّفق. أسرع معـه: شهقــات نصف مكتـومــة من نـاصر. ثمّ أصابعه وأضلاعه تتصلّب عليّ، وتهمد، والكتلة تَنْزَكُ يتوغّـل ويحترق. وأنا أعدو، أعدو.

هكذا استعبدني ناصر. وهكذا أدمنت عبوديّتي وعشقتها.

ذات يوم قلت له بعد أن همدنا: «ناصر! عانقني شويّة!»

قال: «أما اكتفيت؟»

كان شلّال عين مرداس يتـدفّق ويهدر في عيني. حسبت أنّ نـاصر سيحملني إلى ذلك الأفق. لكنّه اتّخذ وضعيّة نوم مريحة وانقطع عني.

«لا تنسي العزومة بكرة،» كانت آخر كلماته. وسريت وحـدي إلى عين مرداس.

كـان أبو حـاتم ضيفاً دائـماً حول مـائـدتي. طفـل رهيب لـه جثّـة برميل. وهو عند السّهـر شيء آخر تمـاماً غـير الوجـه الصّخري الفظّ الّذي لقيته أوّل مـرّة. إنّه يكـبرني بعشرين سنة. مـزيج متنـاسق من الأب والأخ. لكن رفاقه أخذوا يلومونه على مـا أحببته أنـا فيه، وهـو تـوجّهه نحـو علـم النّفس. كلّ سهـرة، يطالبونه بالعـودة إلى الصّراط المستقيم للرؤيـة العلميّـة، وإلى «مـركـزيّـة العـامـل الاقتصـادي» في الصّراع بين التقدّميّة والإمبرياليّة، و و و.

ودائماً يظلّ وجهه هادئـاً ومنشغلاً، كـما لو أنّ صـاحبه يلتهم صحنـاً من الكنافة. وقـد قال لهم يـوماً: «نحن دائـرة بلا مـركز، وستتـطاير شذر مذر».

فاجأني ناصر بانفعال راعد. فاجأ الجميع. هو في العـادة فظّ تمامـاً في النّقاش. لكنّه دائماً يراعي أنّ الآخرين ضيوفـه. ويراعي أكـثر أنّ لأبي حاتم مكانة خاصّة لا يمتهنها أحد. أراحني أنّه أخذ يشتم فرويـد ومـا لا أدري من الأسماء: «نبيّ حقـير»، قال عنـه. و: «أحقـر صـورة لـلإنسان هي تلك التي يـرسمها فـرويـد. كتلة حيـوانيّـات ونقـائص ونقائض».

غير أنّه انتقل بعدها إلى أبي حاتم نفسه: «كيف يؤمن واحدنا أنّك كنت تقدّمياً في أيّ يوم من حياتك؟ يعني، لأنّ النّظام الاشـتراكي في العالم انهار، علينا نحن أن ننهار معه؟»

التفت إلى جميـع الحـاضرين، وخـاطبهم بـالمفـرد والجمـع، كلّهم وواحداً واحداً: «ليكن معلومـاً أنّنا مستمـرّون. إن لم يكن بالسّـلاح، فبالحياة اليوميّة، في العمل والبيوت. ثابتون في مواقعنا. والمستقبل هو لأولادي، أولادنا كلّنا، حتماً. مركز أو غير مركز.»

فهمت شيئاً واحداً من كلام ناصر العالي: أنّه أحلّ نفسه محلّ أبي حاتم في تلك المكانة الخاصّة. ابتسمت في داخلي بفرح قوي. أنا لا أحبّ أن يكون الإنسان رئيساً لمجرّد أنّه كبير في السنّ. إنّما، كان عقلي مع أبي حاتم. وقفت عند المنعطف بين الصّالون والمطبخ، وهتفت بناصر: «يا جماعة خلّصونا من التّصانيف. الشّغلة بسيطة: الّذي يعلّمني أشياء عن نفسي وحياتي، يكثر خيره.»

ابتسم لي ناصر بمغفرة فاترة. ونهض فأشعل لأبي حاتم سيجارته. لكن أبا حاتم قال: «الّذي لا مركز له، لا سيرورة له.»

ما كان هذا ليهمّني كثيراً. أنا امرأة تقنع بعالم صغير رغيد. لست بحاجة إلى المراكز. أنا أكتفي بالّذين حولي. إلاّ أنّي لن أنسى ذلك اللّيل الّذي أعقب انصراف الضّيوف.

اقترب ناصر منّي وهو حريص أن لا يعني اقترابه اهتماماً خاصّاً بي. أشعل سيجارة، وفيما هو يعبّ منها نَفَسه الأوّل، لوحت إصبعاه بعود الكبريت حتّى أطفأتاه. مدّ يده بالعود إلى المنفضة، وسألني: «أنت مرتاحة لجلوسك معنا في كلّ سهرة؟»

كنت متمدّدة على الأريكة الكبرى، تاركة شغل الجلي موقتاً. طربت لاهتمامه بي. وأسرعت أوكّد له: «لو لم أكن مرتاحة، فماذا يجبرني على الجلوس؟»

دون أن ينظر إليّ قال: «كلّهم رجال. وأنت المرأة الوحيدة.»

قلت: أنت لا يهمّك. أنا أرتاح لجمع الرّجال أكثر من جمع النّساء. إنّما، خلّهم يجلبوا معهم نساءهم، إذا أرادوا. أنا ما عندي مانع.»

«هذا هو قصدي» غمغم باهتمام. وأضاف موضحا: «ماداموا لا يجلبون نساءهم.»

هتفت بحماس: «أنا عارفة أيّ ناس هؤلاء! لا يطيق أحدهم أن يسهر مع امرأته.»

قال هو بجدّيّة واجمة: «سهرات الرّجال، دائماً لها طابعها الخاصّ. هاتي امرأة واحدة، وحطّيها بينهم، تنتزع سهرتهم بالكامل.»

لم أستطع شيئاً سوى أن أهتف: «ناصر»!

مضى هو يقول: «سأعطيك سببين جوهريّين لضرورة عدم مشاركتك معنا. السّبب الأوّل...»

هتفت به مبهوتة: «ناصر! أنت فعلاً جادّ في كلامك؟»

قال: «السّبب الأوّل، جلسة الرّجال لا تبلغ مجدها إلاّ عندما تأخذ لغتهم حرّيّتها. الرّجال بحاجة إلى تبادل السّفاهة والكلمات الرّذيلة. هذا يريحهم، يطربهم. إذا وجدت معهم امرأة واحدة...»

قلت: «والسّبب الثّاني؟»

أشعل سيجارة ثانية من الأولى. خلال هذه الثّواني تغيّرت سحنته. قال وهو ينظر إلى الشّرفة: «السّبب الثّاني، المفروض أن تعرفيه أنت. أنت امرأة وتحسّين.»

لم أُحبِبْ يوماً هذا الأسلوب الموارب في شخصيّة ناصر. أثبتّ قدمي على أرضي، وقلت: «مادامت السّهرة في بيتي، سأحضرها. وبعدئذ هؤلاء رفاقك وأصدقاؤك.»

طبعاً أصدقائي. لكنّهم بشر. وأنت بالنّسبة لهم امرأة. نادرة المثال. كلّ واحد فيهم يطمع بأن تكوني عشيقته. كلّ واحد.»

ضحكت. وطربت أيضاً. «يا عيني! يا عيني! كلّهم يرونني...»

كيف أصف ردّة فعل ناصر؟ كان يهمّ بأن يأخذ نفساً من سيجارته. انفلت شيء في داخله. التفت نحوي. امتدّت يده على شكل مسدس، وسبابته هي السبطانة. وراحت تتهزهز أمام وجهي لترسم هي الآخرى معاني كلماته: «اسمعي يا نادية! لا تعملي لي متحرّرة، وبنت جامعة! أنا عيوني مفتحة وشايفة كلّ شيء.»

نظرت إليه شبه مذهولة. قال: «كلّ سهرة أراك تتقصّدين واحداً. تحومين حوله. تخصّينه بالخطاب والجواب. لكن اليوم، بلغ السّيل الزُّبى. حتّى أبو حاتم!»

كنت قد فقدت بشاشتي وصرت واعية بهشاشتي. أحسست أنّ الأرض تهوي تحت الأريكة. هتفت بارتياع متوسّل: «ناصر! وحبّنا الّذي ولد في المخيّم كشجرة في الحقول؟»

ردّ هو بإصرار: «أنت خلّيت كلّ واحد من رفاقي يشتهيك. لا، بل ويطمع فيك. من الآن فصاعداً، ممنوع تحضري السّهرات.»

نهضت عن أريكتي ومشيت إلى المطبخ. أغلقت بابه ورائي وانسندت عليه. بعد دقائق أحسست أنّ ناصر غادر البيت. عدت إلى الصّالون. كان غارقاً في الصّمت والوحشة.

لن أزعم أنّه لم تغفُ لي عين، أو لم تهدأ منّي الجوارح. لقد نعست بعد قليل، فلبست بيجامتي ونمت. وبمعنى ما، بقيت نائمة ثلاثة أيّام. نحن الاثنين صرنا أيضاً جزءين غارقين في الصّمت والوحشة. في اليوم الأوّل، عاد من الشّغل بلا كلام، وجلس في الصّالون بلا حراك. مرّة واحدة فقط دخل المطبخ، ثمّ عاد إلى كنبته. خمّنت بعد قليل أنّه تفقّد المائدة. لم يشأ أن يكلّمني. لم يبد أنّه قد أخطأ أو أنّه مستعدّ للتّراجع. ولم أشأ أنا أن أكلّمه. مثلما فعل، فعلت: رميت

مريول المطبخ وأنا في الصّالون، وجلست معه على كنبة أخرى. نهض إلى المطبخ.

أبيت أن آكـل معه. ثمّ نـدمت. أحسست بخـوف مبهم. كـأنّني موشكة أن أفقد شيئاً. وندمت لأنّي لم آكل معه. بعد كـلّ شيء، هذا تعبي ومجهودي، فلماذا لا آكل؟

مرّ وقت طويـل بلا صـوت ولا حركـة. فهمت أنّ ناصر أخلد إلى النّوم. إذن فهو منصرف عنّي تماماً. في اللّيـل أيضاً، تمـدّد على طـرف السّرير ونام. كـان واضحاً أنّـه قد تـوقّف تمامـاً عن أن يحبّني. رأيتني مظلومة، فأنا في الحقيقة لم أسئ إليه. ولكنّي كنت خائفة. أنـا لم أعِدْه يوماً بالتخلّي عن ذاتي لأجله. مع ذلك كنت خائفة.

في الصّباح التّالي رأيتني خـائفة وضعيفـة. لم يكن لدي مـا أتحدّى ظلمـه لي، مثلما تحدّيت ظلم إخـوتي. وحتّى لم أشعـر بـأنّي راغبـة في ذلك التحدّي. طول النّهار وحتّى اللّيل، وأنا أنظر خلسة إلى وجهـه، فأرى سيماء رجل يعتقد أنّني خنت وزنيت.

ثـلاثة أيّـام: لا كلمة ولا حـوار. لم يحسّ بي على الإطـلاق. نفى وجودي من البيت. وهذه الجدران الّتي طالما تذمّرتُ من ضيقها وكآبة سطوحها، صارت كالدرع الواقية لروحي المخلخلة. لأنّها لو اتّسعت لتبدّدت روحي داخلها. لقد توقّف ناصر نهائيّاً عن أن يحبّني. تفـادى أمكنتي. أبعـد عينيه عن عينيّ. وأصـابعه عن أصـابعي. وقامتـه عن قـامتي. وجسده عن جسـدي. إذا جلست إلى الطاولـة لآكـل معـه، شبع وقام. إذا شاركته الفرجة على التلفزيـون، انصرف إلى القراءة. إذا بـدرت مني رغبة في الكـلام معه، نـظر إليّ بغضب ماحق فـمادت الأرض تحتي.

في اللّيـل الـرّابـع حسبت أنّ هـذا الأبـد سيقتلني. هـذه الغـربـة والهـوان. ما أقسى الهجـر على المـرأة! لم أكن أعلم ماذا يفعـل سكّان بيت عندما يتصـدّع جدار فيـه. صمت ناصر وكـآبته وغـربته كـانت كافية لأن تهلك روحي خلال ثلاثة أيّام. كان واضحاً أنّه لم يعد يراني جديرة بحبّه. كان صمته ألماً عميقاً عميقاً.

تمـدَّد علـى السّرير. أحسست أنّه قد اقترب بضعة سنتمترات عن اللّيل الفائت. طـارت نفسي شعاعـاً. كان التّنـاصف قد صـار عرفـاً موقتاً، ودمغة غربة. شذرات من الثّلج الجميل راحت تهمي داخلي. وإذن فناصر يعطيني فـرصة. شـذرات من الثّلج المندوف، تهبط عـلى مهلها، تتهاوى عـلى مهلها، تهبط هبـوطاً متكسّـراً، وتتّجه إلى التخم النّاري الفاصل بين جسمه وجسمي، لتذوب هناك.

لامست بقـدمي قدمـه. لمسة. لم يمـانع. أدركت أنّ بـإمكـاني أن أنطلق إليه. علمت أنّ هذه الدّهور الثّلاثـة قد انصرمت. علمت أنّ ناصر مازال يقبل بي. ولم يهمّ أيّ شيء آخر.

تـريّثت ثواني لأعـطي للملامسـة كثافـة ومصداقيّـة. ثمّ انفصلت القدمان. أخذ جلدي يبكي أنفاسـاً لا دموعـاً. وأحسست أنّ أنفاس جلدي وأنفاس جلده جعلت تتلامس. ثمّ تتداخل. ولم يعد هناك ما يمنعني من أن أتحـرّك ، وكـأنّي أغـيّر وضـع جسمي، وأديـر وجهي وصدري إليه. وجمدت في مكمني أنتظر مبادرته.

رأيت عينيه تلمعان في العتمة، تسربلانني وتخملانني وتغرقانني. في اللّحظة التّالية كان وجهي على صدره، ويدي على خـاصرته. لم يكن هناك مكان آخر أفرّ إليه.

إنّني أذكر هذه التّفـاصيل لأنّها كـانت في ذلك اللّيـل فرحـاً لا حدّ

له، ومهرباً لا غنى عنه. لن أستردّ تلك الأحداث. سأقول فقط إنّ غشاوة قد انقشعت عن عيني ذلك اللّيل. لقد ظلّ ناصر يحبّني حتّى أوشك أن يغمى عليّ. كان مستحيلاً أن يحبّ رجل امرأة هذا الحبّ. لقد انعجن جسدي لحماً وعروقاً، وصار خبصة واحدة. ذلك اللّيل علمت كم يحبّني ناصر. لقد أوصلني إلى ذرى الذرى. أوصلني إلى قرارة المنتهى.

امتلكني. بالكامل وإلى الأبد. وكما لا يمكن لرجل أن يمتلك امرأة. توغّلت أنفاس جلده وجلدي في لحمي وعظمي وألهبت كلّ شيء هناك. وعرفت أنّي سأكون مغفّلة وبلهاء إذا كففت لحظة واحدة عن إشعاره بأنّي ملكه.

كنت سعيدة تماماً وأنا أقوم على خدمته في اليومين التّاليين. أردته أن يقتنع مرّة وإلى الأبد بأنّني مثلما كنت له طَوال اللّيل سأكون له طَوال النّهار، طَوال اللّيالي والنّهارات، وكلّ صباح ومساء، وكلّ العمر.

فهمت سبب عيائه. لو أنّ جاموساً تنحنح كما تنحنح هو ذلك اللّيل لوقع في أرضه. لذلك لم أتركه يتحرّك إلّا لينتقل من السّرير إلى الصّالون وبالعكس. تبعته أينما ذهب. وبدا هو مَلِكاً متوّجاً بالفخر والاعتزاز. وكنت سعيدة أيضاً لأنّ أحسّ أنّه هو الآخر ملكي.

أهمّ شيء هو أنّ لا يعبس ناصر في النّهار، ولا يقاطعني على الفراش في اللّيل. لا يمكن لأنثى أن تتحمّل الهجران. كلّ شيء يمكن تقبّله وتحمّله. لكن الإحساس بانعدام فاعليّة الأنوثة على من تحبّ إحساس قاصم للظهر. إنّه يلغي المرأة بكلّيتها.

جعلت هذا الشّعور قوتاً يومياً لروحي وخيالي. لقد «ربّاني» ناصر فعلاً، كما دأب على أن يقول لي بفخر هادئ، وأسمعه بغبطة ماكرة.

في الصّباح الثّالث قال لي وهو يزرّر بنطلونه: «اليوم عندنا سهار.»

وكنت سعيدة. فور خروجه هبطت إلى البقّال واللّحام بدولاراتي الّتي لا يعرف ناصر أنّي أصرفها، واشتريت الأكداس الّتي رأيتها لازمة للوليمة. وبعد خروج الصبيين اللّذين حملاها إلى المطبخ، جلست بينها على الأرض ومددت ساقين فرحتين.

كان الرّبيع قد أطلّ على العاصمة ببرده المنعش وشمسه الأنيسة. لكن شرفة المطبخ كانت تطلّ على كتل كامدة في الجانب المقابل من الشّارع. نصف ساعة، أو أكثر قليلاً، وإذا بالخضرة المنثورة حولي تحملني إلى سفوح وحقول بعيدة. قبل عشرين شهراً تقريباً، كنت أنخطف بينها، فتتمايل لمروري وتخشخش. لم يخطر لي يومها أنّني سأجلس ذات صباح، في مطبخ معتم قليلاً، وهي مرميّة حولي خرساء وعمياء، وداخل أربطة وأكياس. أنا لست الرومنتيكيّة الّتي يضعف قلبها لرؤية جرزة الخبّازى مربوطة بخيط قنّب. لكنّني أحسّ أكثر بجمالها وهي تتغندر في تربتها لرياح الرّبيع. بعد حوالي السّاعة أيقنت أنّي سأدخل تلك الحالة المزدوجة من الوجود والكينونة الّتي أعانيها كلّما انفردت داخل شقّتي. إنّها حالة صعبة. فيها أصير امرأة يتحرّك جسمها بمعزل عن خيالها وذهنها. يتحرّك الجسم كآلة. ويتحرّك الخيال كفيلم. يصير الجسم كتلة تتحرّك ببرنامج ذاتي: التّبويق، الفرم، الغسل، شغل النّار، التّقشير، شغل النّار، الفرم، الغسل، التّبويق... روائح البصل والثّوم والخلائط واللّحم المحروق والدّجاج المسلوق، تتعبّق حواسي وتخملني... ويصير الخيال رياحاً تدوّم وتندفع في الجهات الأربع. روائح الأعشاب وزهر العسل والتّراب بعد المطر وأطواق الحمام، تتعبّق ذاكرتي وتنقل روحي إلى أزمان بعيدة وأمكنة بعيدة.

لقد قلت لناصر فيما بعد: «ناصر أنا تصيبني حـالات، أحسّ فيها بالاختناق. أتعرف ماذا يعني؟ أنا أهرب إلى الشّرفة في هذه الحالات. حتّى لا أختنق.»

قال هو بأناة: «المهمّ، لا تستعرضي شكلك على الشّرفة، وتقعدي كأنّك ما عندك رجل».

كـالعادة، لم أدر متى أنجـزت مهمّتي. عاد نـاصر حوالي الثـانية، فتنـاول وجبته الّتي هيّـأتها لـه، وبسرعة نـام. تابعت عمـلي. حـوالي السّادسة، كانت السّلطات والحمائس والمتبّـلات قد صـارت جاهـزة. بقي فقط الطّبختان الرّئيسيتان، وكانتا جاهزتين للنّار.

غير أنّ الدوّامات بدأت تخـترق عينيّ وتزوغ بهـما. وكان نـاصر قد خرج ثانية. صنعت فنجان قهوة وجلست إلى طاولة المطبخ. أمسكت به بكلتا راحتيّ. وعادت إليّ الدوّامات.

نهضت وحملت فنجـاني. إذا بقي رأسي يفتل ويـدور، فلن تمكنني المشاركة في عجاجة المساء.

الشّقة الّتي سكنّاها لا تتّصل بحـديقة ولا بـأعشاب حقليّـة. قلت لنفسي، اشربي فنجان قهوتك في الشّرفة المطلّة على البحر. تأمّلت من هنـاك النّوارس والأصيـل، والسّفن والقوارب، معـركـة المـرور عـلى الكـورنيش. هذه أشيـاء تصل الإنسـان بالـدنيـا، بـالشمس والهـواء والأمواج والحركة.

وهكذا فعندمـا بدأوا يتـوافدون، كـانت الدوّامـات قد انقشعت، وصدري قد صار خفيفاً وواسعاً. وكنت مستعدّة لسهـرة من تلك الّتي جعلت ليالي المخيّم ذاكرة سعيدة حافلة.

لم أستـطع الانضـمام إليهم إلاّ قبيـل العـاشرة. بعضهم سـاعـدني

حقّاً. وبخاصّة في تهيئة الكؤوس وقطع الثّلج. لكنّ الرّجال هم الرّجال. هناك نظام ما يجعلهم يرون أنّ من طبيعة الأشياء أن تقوم النّساء على خدمتهم. ومثلما قال أبو حاتم، فإنّ عمر هذا النّظام سبعة آلاف سنة.

كان أبو ناهض يقول: «نحن ربّما صرنا لاجئين في بلدنا.»

كيف يمكن أن تسدّ أذنيك عن جملة كهذه؟ جلست إلى جانب ناصر، وتناولت كأسه وهتفت: «كاسك أبو ناهض!» وصاح الجميع زوبعة من الهتافات، وشربنا.

صاح ناصر: «أنتم تخرّفون. كلّ تقدميّتكم لا أشتريها بدولار. تتكلّمون كأنّ كلّ معركة ضدّ الرأسماليّة صارت مستحيلة. أو خاسرة. وأنا أقول لكم إنّ المعارك ضدّ الرأسماليّة لن تنتهي. أقول لكم إنّ الرأسماليّة الآن تتفسّخ وتتآكل، من الداخل، أكثر من أيّ وقت مضى».

لم يكن هذا أهمّ شيء. ولا النقاش الحامي المتقاطع الّذي أعقب النّخب على كلام ناصر. ليست الآراء أهمّ شيء في الحياة. أهمّ شيء هو الحياة نفسها. وتلك السّهرة كانت حياة بملء الكلمة. أثناء السّاعتين اللّتين مضتا في الزّعيق والهتاف، لم أعبأ بأيّة مناقشة. كان يهمّني فقط أن أقول: «كلّ شيء مسألة نسبيّة: الوطن، الجماعة، العقيدة، المدينة، العائلة... إلاّ الحبّ. والّذي يعيش الحبّ لا يمكن أن يحسّ أنّه لاجئ.»

أهمّ شيء هو ذلك الهناء الّذي فاض بي من الدّاخل. الّذي أفاق معي ظهيرة اليوم التّالي ورافقني إلى المطبخ لأصنع فنجان قهوة، ثمّ إلى الشّرفة لأشربه. هناك جلست، وما أغربها من جلسة! رغم

تتلمذي على أبي حاتم، فأنا لا أزعم أنّي صرت شاطرة بعلم النّفس. فقط يمكنني القول إنّ النّفس البشريّة غريبة حقّاً. أيّة كيمياء تسحبها من الهناء والاندغام بالمراكب والنّوارس والكورنيش؟ أيّة كيمياء تخلق فيها عناصر جديدة، مثل الضّجر فالكآبة فالضيق، وأخيراً الحزن الّذي لا سبب له ولا تفسير؟

عندما وصل ناصر ودخل الشّرفة، كنت مسترخية تماماً على كرسي الخيزران، أصابعي متشابكة وراء رأسي، وذقني مستريح على نحري.

استعدت هنائي دفعة واحدة. والبحر والفضاء والكورنيش. ودفعة واحدة خسرتها. نظرت إلى وجه ناصر، وخسرتها. أعلمتني نظرته أنّني واقعة في خطأ لا يمكن إصلاحه. خطأ مستقرّ على جسدي كثوب داخلي.

اعتدلت في جلستي وتلملمت. رفعت وجهي المترقّب نحو وجهه المنتصب المشرئبّ. لم يقل: مرحبا. لم يقل أيّ شيء. مشينا إلى المطبخ. جلوت صحناً ولوازمه وسكبت له طعاماً للغداء.

أحسست أنّ ضغطاً مرتفعاً بدأ يتكوّن فوق رأسينا. وربّما داخلهما. إذا كان ناصر قد أجّل الكلام، فهذا يعني أنّه لم يجد بعد العبارات الّتي تنطق باستيائه.

أدركت أنّه إذا تكلّم، فعن مشاركتي ليلة السّهرة في حوارات الذّكور، وفي شرب العرق خاصّة. ناصر لا يغفل ولا يغفر. يلملم الأخطاء ويكدّسها. وإذا تكلّم فلن يمكنني الردّ على قوّة كلامه. إذا تكلّم فسيشكّ أشواك الشّك في عقلي ويجعلني أقلّ إيماناً بحقّي في ما فعلته. لقد أسعدتني تلك المشاركة إلى حدّ أنّي رفضت أنّ أراها غلطاً. وكنت محتقنة من تصحيحات ناصر لسلوكي إلى حدّ أنّي تمنّيت

ولو مرّة واحدة أن يجد شيئاً من الدّعابة وهو يكلّمني.

يجب أن أعترف أنّ سعة صدره هي الّتي سمحت لي بذلك التحدّي. كنت عارفة تماماً أنّ موقفاً صارماً يعلنه هو مرّة واحدة، سيجعلني مئة مرّة أضعف من نادية الّتي واجهت إخوتها الثّلاثة بلسان قويّ وقلب هابط. ووجدت أنّ المكان الوحيد الّذي سيلجمه هو الشّرفة.

هكذا اجتمع المنكران: الشّرفة والوليمة. في اليوم الرّابع قال ناصر بجهامة: «بكرة عندنا سهار. اعملي لنا أربعة أو خمسة أنواع من الكبّة، ولا داعي للطبيخ.»

لقد ظنّ أنّه أراحني. أربعة أو خمسة أنواع من الكبّة تعني على الأقلّ لتراً من الدّموع أذرفه فوق البصل اللاّزم لها. وجدتها فرصة كي أهاجمه قليلاً في موقع يمكنني، أنا المرأة المحاصرة، أن أخترقه. أردت الحصول على فسحة أوسع حول عينيّ وحول رئتيّ. وأردت أن أمنعه من أن يفتح فمه ويهاجمني، أو يسدّد إليّ تصويباته المسبقة بشأن السّهرة المرتقبة.

نظرة مضادة واحدة منه جمّدت الكلام في لساني، واللّسان في فمي.

وذلك المساء، انفلتت الطّبيعة. كنت أحلم بعين مرداس، ولم أنتبه إلى أنّني سأكونها دون أن أدري. ألف حساب حسبت لكي لا أستفزّ ناصر، ولكي أشركه في الّذي نبع من داخلي. لكن حساباتي تلاشت أمام إيقاعاتي. لم أستطع أن أغلق أذني عن صرخة أبي واسع بأنّ الرأسماليّة لن يهدأ لها بال قبل أن تفتّت الكتل البشريّة المتراصّة في حظائر العالم وتحيلها إلى قطعان استهلاكيّة. وأنا العاشقة الأبديّة

لأبيهـا، طربت لمقـولة أبي حاتم بأنّ عصر نهضتنا نجح فقط في قتـل الأب. «قتلنـا الأب، وبقينا مسـوخاً لا يمكنهـا أن تكبر. بينـما القـرن الحادي والعشرون يتطلّب منّا أن نكون مردة.»

لم يشأ ناصر أن يقـول شيئاً. بصمتـه أراد أن يرغمني عـلى صمت مماثل. لكنّ النّبـع فار، وانسكب، وقلت: «المهمّ أن تكـون حرّاً من الدّاخل. وإلاّ فلن تكبر أبداً.»

ثمّ اندفع الشلاّل. ساعـة، ساعتـين، وأنا أشرب وأتحـاور. هناك فرح كالمطر، يمكنك أن تلمسـه بيديـك وحواسـك، إذا أنت تكلّمت بحرّيّة ـ دون أن يلتقطني خوف الأنثى ويحيلني إلى دمية ناعسة.

بعـد انصرافهم انهمكت في إعادة تـرتيب البيت. لمست من ناصر رغبة متكرّرة في الحديث. أفسدتها عليه باستغراقي الكامل في شغلي. هو في العادة يريد إنصاتاً مطلقاً. وقد أيقن أنّه لن يحصـل على مبتغـاه فيما أنا أتحرّك بإصرار بين الصّالون والمطبخ، وفيما ماء المجلى يفحّ على الصّحون والكؤوس والملاعق.

لم أرد أن أتنـاقش مـع نـاصر. إذا كـان النّقـاش حبـلاً يلفّ عـلى القلب، فلماذا النّقـاش؟ لمـاذا أيّ كـلام، إذا لم يكن للفـرح وشرب الحياة؟

تأجّلت المشادّة اثنتي عشرة ساعة. نـام ناصر وتـركني في المطبـخ. ولخوفي لم أجرؤ على ترك المجلى إلاّ بعـد ساعتين. أرعبتني صورة عينيه المفتحتين في الظّلام، تنتـظران مجيئي إلى السّرير. أرعبني أن آتي إليـه وهو في قمّة استعداده للمجابهة. أنا قويّة بحبّ الحياة، لكنّني ضعيفة أمـام الجنـود. كلمـة واحـدة منـه، نظرة واحـدة، وقفـة واحـدة.. وأنسحق.

رغم ذلـك، كنت في الظهـيرة التاليـة أحلم بعودة لـه تبدأ بمـرحبا وبابتسامة. لم أستطع أن أفهم ما الغلط، ما القبح، ما الظلم، في أن أحبّ الحياة. جلست في الشّرفة وأنا موقنة فعلاً بأنّه سيعود إلى البيت صافياً، ودوداً، بل مَرِحاً.

وكـان أوّل ما قـاله لي عنـدما ولـج الشّرفة: «أنت معـوّمـة عقلك وشعـورك عـلى بحـر أوهـام وفـذلكـات. وكلّما طلع من مخّـك بخـار، حسبتِه مطراً.»

نبرت دون أن أنظر إليه: «ناصر، الله يخليك. أنا موجوعة وراسي دايخ. لا تحكِ معي.»

«لا يا مدام»، نبر هو بسخرية مشحونة، «لازم أحكي معـك. من بعد إذنك يعني.»

قلت بنصف إجهـاش: «أنا تعيسـة وشقيّـة. وهـذه الحيـاة ليست حياتي. والحبس في البيت ليس الحرّيّة الّتي تمنّيتها معك.»

وصرخ هو: «يعني حرّيّتك لا تجيء إلّا بعرض فخذيك لمئـة شبّاك حولنا!»

صرخت بنصف إجهاش: «ناصر! أنت مصرّ على إهانتي؟»

وصرخ هـو: «قولي لي مـاذا تريـدين؟ ها؟ أن تثبتي تفـوّقك عـلى الرّجال؟ أن يقولوا عنك، نادية متفوّقة على زوجها؟»

كانت الدّموع قد أغـرقت صوتي عنـدما غمغمت: «أنـا أفعل مـا أحسّ به. وبس. وأقول ما أفكّر فيه. وبس.»

«إذن لا تحسّي ولا تفكّري!» صرخ ملء حنجرته. «عندك زوجك وبيتك. اشغلي عقلك بهم.»

أدرت ظهري وهرعت إلى غرفة النّـوم. أغلقت بابهـا ووقفت عند

شبّاكها. كانت الحركة في الشّارع قد أخذت تشتدّ بعد انزياح الحرّ. كانت شيئاً مدهشاً ـ هذه الحركة، بل هذه المدينة الّتي لا تتعب ولا تيأس رغم حزنها ولهاثها.

أنا امرأة تكره حتّى الموت أيّة هزّة تصيب مسلّماتها الأساسيّة. وقد كان حبّي لناصر واحدة من هذه المسلّمات، بل أولاها. كلّ هزّة تصيبه كانت تقصم روحي وترميني في مستنقع من اليأس والهلاك.

تحرّش ناصر بي أواسط اللّيل. ليس ندماً، ولكنْ توكيداً للسلطة. هو في العادة لا يندم. كنت تمدّدت على الفراش وفي ذهني همّ وحيد: متى يأتيني النّعاس المستحيل فأنام. وفجأة أحسست بأنفاس جلده تدخل في أنفاس جلدي، تمتزج وتختلط فيها.

علمت أنّنا سنبرم عقداً جديداً للملكيّة. داهمتني الرّاحة، وجرفت جبلاً عن صدري. الرّاحة، نعم. إنّما السّعادة، لا. الكرامة، لا. أنا أقبل بوجود مستنقعات في الحياة الزوجيّة. لكنّي لا أقبل أن أغرق فيها.

أمسكت بتلابيب كبريائي لحظةَ رمى كفّه على زندي. وقد انتظر برهة ليرى ردّة فعلي. هذه المرّة أحسست أنّي إذا أفلت يدي عن كبريائي فُسأهوي، وستسقط معي أنوثتي وشخصيّتي. امتنعت عن كلّ ردّة فعل. ركنت في مضجعي بلا حراك.

خلال ثوانٍ صار زندي شمعاً يحترق ويذوب داخل قبضته. شدّني نحوه فانشددت. وأخذت أنوثتي تهرب منّي إليه. التفتّ. وحرّكت رأسي بانتفاضة، كأنّني أسأله: ماذا تريد؟

«أنا آسف، نادية،» قال وهو يرشّ وجهي بنظراته المرتبكة المصمّمة.

أمعنت النّظر إلى وجهه، بلا انفعال. ودفعه هذا إلى مزيد من الكلام: «صدّقيني أنا لست متخلّفاً إلى هذا الحدّ. أنا أمرّ في أحوال صعبة. نحن كلّنا. كلّ ما صرخت به العصر، غلط. وأنا آسف.»

كنت ماأزال ملتفتة فقط. جعلته يحتاج إلى مزيد من الكلام لكي يبرّر نفسه. أردت أن أتداوى بالكثير من كلامه المعتذر.

وكان يقول: «أنا أحاول أن أخفي عنك حقائق وضعنا حتّى لا تتأثّر حياتنا الزوجيّة بها....»

وجدت نفسي أقول: «غلط. احْكِها لي. ترتاح وتريحني».

«تصوّري، أنا الّذي لولا اشتراكك في المعسكر لما أحببتك، أحاول الآن منعك من الاشتراك في مناقشة منزليّة».

«نشكر الله أنّك وعيت.»

هذا الصّدق استحقّ التفاتتي الكاملة. استدرت، وأوكأت جذعي على مرفقي.

قال بخفوت وإطراق: «العالم يسلبني كلّ شيء. كلّ أحلامنا. رؤيتنا للعالم، حيث لا تستعبد الفرد حاجاته، ولا يخاف المجتمع على كيانه من الظلم والفرد... هذه لم تصمد أمام اقتصاد السّوق.»

قلت ببلاهة: «ولكنْ نحن ما دخلنا في هذه الشّبكة كلّها؟»

نظر إليّ بتوسّل: «ألا ترين؟ العالم يسلبني كلّ شيء. حتّى مبرّر وجودي. كيف أضمن أنّه لن يسلبني حبّك لي؟»

أنفاس جسده هبّت على جسدي في تلك اللّحظة. وأنفاس روحه. وأنفاس عينيه. وهببت أنا إليه. وعليه. أردت جسدي أن يقول له إنّ حبّي له لن يسلبه أحد. وفي تلك البرهة نفسها أخذت راحة يده تحنو على البرعم الناتىء من جذعي، الّذي يحتشد فيه كياني وحناني.

ذلك هو الحبّ حقّاً. ذلك هو الحبّ ـ قلت لنفسي. أغلب الظنّ أنّ ابننا حسان انفطر تلك اللّيلة. الابن الّذي أنجبته أقصى حالات الحبّ. لقد قالوا إنّ آدم وحوّاء هما فلقتان لبذرة واحدة، مرتبطتان برشيم يجعل منهما شجرة وارفة. بالتأكيد. وماذا كان آدم وحوّاء ليساويا لولا ذلك الرّشيم؟ اقطعْه تَمُت الفلقتان. اتركه تَرَ السّعادة، واللّذة، والنّمو، والأمن، والعزم في مواجهته الحياة. إنّما، من أين يأتي الغلط؟ من أن يتسلّل العطب إلى الرخام والنّهر والخيول؟

لم نقم إلى الحمّام ذلك اللّيل. بعد لقاء الحركة جاء لقاء السّكون. لفلفني ناصر بصدره وذراعيه وساقيه، ورفض أن نغتسل أو أمدّ يدي لتغيير الشّراشف أو لبس الملابس. ومرّة أخرى كنت قد صرت عجينة هامدة.

عندما أفقت قبيل الفجر وجدتني مازلت مقمّطة بجسد ناصر. غير أنّي كنت محتاجة للفلفشة. مرقت من أربطته ونمت على صدري. علت يده، وبهدوء ذاتيّ تسلّلت تحت نهدي.

أفقت في الضّحى. وفي طريقي إلى الحمّام التقيت بناصر. «صباح الخير يا حلوة» قال لي. وأشار بيده: «أنا على الشّرفة. منتظر قهوتك الطيّبة.»

رددت تحيّته وابتسمت. إنّه الآن يشعر بظفر ذكورته.

صنعت القهوة وقدّمتها له. تناول فنجانه على مهل. قلت: «البارحة حكيت شيئاً بسرعة عن العيش. هناك مشاكل؟»

تناول جرعة لا بأس بها من فنجانه، وأعطى إشارة النّفي بأنّ رفع شفته العليا وأنفه في وقت واحد. ولأنّه استخفّ بالأمر، فهمت أنا أنّه جدّيّ.

قلت بحماس فاجأني: «ابدأ بمشروع جديد.»

انفتحت عيناه بالدهشة، ثمّ سرعان ما تهدّلتا بالاستخفاف. أطرق فوق فنجانه: «تعرفين أنا لست واحداً من أولئك. أنا طلعت من المولد بلا حمّص. حتّى دخلي الشّهري صار موضع مساءلة.»

«برأيي، أعطهم ظهرك، كلّهم. وابدأ بمشروع جديد.»

نظر إليّ باستغراب ممزوج بالغضب والتهكُّم. قلت: «أنا أقدر أن أنتف من إخوتي عشرين ألف دولار. ألا تكفي هذه للبدء بمشروع؟ دار نشر مثلاً. تنشر الدّراسات عن تجربتكم.»

من سيمائه علمت أنّ الفكرة راقت له. ثمّ غابت تلك الانطباعة وحلّت محلّها أخرى، مرتابة متكتّمة. أدار وجهه نحو البحر بحزن مفاجىء. ولأنّه صمت، عرفت أنّ الحزن أقوى من اللّغة. وضع فنجانه على الطّاولة ونظر إليّ: «يبدو أنّه لا فائدة يا نادية، ما؟»

قلت لاهفة وخائفة: «لا فائدة، من أيّ شيء يا ناصر؟»

أخذ يهزّ رأسه ومنكبيه: «لا أعرف لماذا أنت مهووسة بالسيطرة عليّ. لا أعرف ماذا دهاك.»

كانت نبرته مختلفة عن جميع المرّات السّابقة. نبرة إنسان ضاق ذرعاً بي، ولم يعد بحاجة إلى المزيد منّي. ولاسيّما جنسيّاً. أحسست فيها نكداً كالّذي أحسسته عندما خاطبني في طريقي إلى الحمّام. وانفجر النقاش طبعاً. وانفجر الشقاء.

كان يرتجف غضباً وحَصراً. وقد تكلّم كإنسان رمى بكلّ ما لديه إلى أشداق الرّياح، ولم يعد يهمّه سوى أن يصرخ بيأسه في وجه مضطهديه. رأيت الرّجل الّذي أحبّه ويحبّني يتشرنق دون أن يدري داخل حالة نفسيّة مروّعة. ولذلك رحت أصاوله حجّة ضدّ حجّة.

عـرضت عليه أن أعـطيه المـال بلا إيصـال، وبكتمان تـامّ عن كلّ إنســان. وأن لا أتدخّـل في شغل الـدّار. وأن أقبـل الانتقـال معـه إلى العاصمة (ش) ليأمن شرّ أصدقـائه في عـاصمتنا. وأنْ وأنْ. شيء في داخـلي انتفض وفرض عـليّ شجاعـة خاصّـة: أن أرفض الاستسـلام للنّكد والغيظ، أنْ أقف إلى جانب نـاصر، وأنْ أؤمن بقدرة الحبّ عـلى الاستمـرار رغم الانهيارات. أردتـه أن يثق بي وبـانتـمائي إليـه، فـلا يشقي حياتنا بقلقه وظنونه. وأن يراني جديرة برفقته.

تلك الشّجاعة كانت دفاعاً عن الحياة. وقـد أحسّ ناصر بهـا فوراً ـ ناصر الّذي عندما يصفو يكون طفلاً جميلاً غير خجلان من طفولته. لقد قادني من الشّرفة إلى الصّالون بارتباك وسرعة. وكم تمنّيت لـو أنّنا بقينا في الشّرفة: لكي يرانا ألف شبّاك حولنا.

ضمّني إليه. ضمّني حتّى هرسني. قبّلني. وبكى بـين يديَّ. وقـال إنّه ليس الشّخص الكريه المتخلّف الّذي يكـونه أحيـاناً. وقـال إنّ لي الحقّ في فـردّيتي، وإنّه سيعـوّد نفسه عـلى أن يفخر بقـوّة عقلي وجمـال حرّيّتي. وبكى بين يديَّ وعلى خدّي. وقبّلني. وقبّل راحتي وشعري. وبكيت أنا. وبكينا معاً. وخرجنا بالبكاء من ذلك المستنقع.

رأيت نفسي وسط شلاّل عين مـرداس من جديـد، وسط غمر من حيــاة الحبّ والأمن والسّعــادة والأمــل. كيف يُمكـننــا أن لا نـفهـم هؤلاء الّذين نحبّهم؟

يجب أن أعـترف أن تصميمي على النّجـاة بحبّي لم يعطني السّـلام الـدّاخلي الكـافي ذلـك المسـاء. لم أنعس مثلما نعس نـاصر، ولم أنم. خرجت إلى الشّرفة بعد إغفائه. وهناك صرت واعيـة بشرخ صغير في جذع روحي: إذا لم يكن ناصر الحبيب بمستوى ناصر المناضل، فـماذا سيحدث لنا كِلَيْنا؟

-٣-

كـان آخر مـا فعلتـه في العـاصمـة هـو أنّي حصلت عـلى الإجـازة الجامعيّة في العـلاقات العـامّة. وبعـدئذ قصـدت مكتب أخي عوّاد. رآني فابتسم لبضع ثـوانٍ. ثمّ فارقتـه الابتسامـة إذ حدس أنّني لم آتِ كـرمى لسواد عينيـه. لم يفاجـأ بـالتـالي لـطلبي خمسـة وعشرين ألف دولار. وبالطّبع لم يفرح قلبه. قلت إنّني كلّ هذه السّنين لم آخـذ من الجمل غير أذنه؛ الآن أريد كميّة من اللّحم. وطلب هو مهلة أسبوع لأنّ المبلغ كبير.

كـلّ منّا اعتمـد عـلى الحسّ السّليم لـدى الآخـر. لم يمـاطـل، ولم يسـوّف. وبالمقـابل وعـدته أن لا أجعـل ديدني ابـتزازه وأخـويـه كلّما ضـاقت بي الحال. وفي النّهـاية نـظر إليّ وقـد غـاض وجهـه من كـلّ ترحيب. قال: «الحقيقة أنّك تفاجئينني يا نـادية. من أين جـاءتك كـلّ هذه القوّة؟ أنا أعرفك. لا جَلَد لك على كشّ ذبابة.»

أجبته بانتعاش: «هذه قوّة الحبّ يا أخي.»

نضـح شيء من الابتسام المـاكر خـارج وجهـه. قـال: «عسى الله يلهم زوجك الصّبر و... الضّعف.»

وبعدها انتقلنا إلى العاصمة (ش).

اخترنا شقّتنا في ضاحية من العاصمة. بالنّسبـة لغيرهـا، هي قصر منيف ـ بـاستقلالهـا، واشتراكهـا مع العـمارة في بـاحـة واسعـة للعب الأطفـال وجلوس الكبـار. لكنّ الضّـاحيـة كـانت كتـلاً جهـماء من إسمنت وخفاف. عارية من كلّ دهان ولون ـ إلّا ذلك اللّون الدخّاني

الكئيب، الموحي بحزن متّسخ. ترتسم وتتمدّى، وبينها مجرّد فواصل متضيّقة يعبرها من الهواء ما يكفي فقط لمنع الاختناق.

حللنا في هذا الخم السّكني، ورأيت نفسي في فردوس من صنع البشر. حولي جموع من النّاس والأطفال، تحتشد في الأمكنة وتكتسحها، تملأ الفضاء ضجيجاً وغباراً، تنبثق من كلّ مكان إلى كلّ مكان. جموع تزخر بالبراءة والتلقائيّة والقوّة والحياة، مثلما تزخر بالغبار والضّياع والوسخ والخشونة والارتياب.

هناك أطلق حسّان، وبعده حيّان، أولى صرخاتهما. وهناك تنفّسا أوّل أنفاسهما، وخَطَوَا أولى خطواتهما. حسّان وحيّان كانا الذّروة والمركز والعمق في استقراري بمدينة (ش). عندما تلد امرأة صبيّاً يتكوّن فيها رشيم آخر، حبل سرّة يربطها ربطاً أبديّاً بأحشاء الحياة الدّافئة. هناك، حيث ينتفي الخوف، وتتوضّع الأشياء.

إنّه لشعور رائع ورضيّ أن تفقد التّركيز على ذاتك، أن تتركها لتتبعثر هنا وهناك. يجب أن أعترف أنّي كنت مدلّلة إلى حدّ ما من قبل هذه الجموع ـ الّذين أعرفهم والّذين لا أعرفهم. أمّ عبدالرحمن، وأمّ فهيم، وأمّ حليم، جاراتي في الحوش الأرضي، عاملنني كأميرة. اعتنين بطفليّ على الدّوام وبلا ظلّ للتذمّر. أحْسَسْنَني أختاً، هي في الوقت نفسه أمّ جليلة تحمل أولادها في السّوق والشّوارع لتشتري حاجياتها، وعبر صخب العالم بهدوء سعيد.

لم أبال بصعوبات الحياة اليوميّة. كلّ شيء أبعدني عن حالي، أراحني، وطمأن ناصر إلى أنوثتي. الحصول على المواد التّموينيّة هو بالطّبع الشّغل الشّاغل لجميع العقول في ثلاثين ألف منزل، هي الضّاحية. غير أنّ شظف العيش منحني حسّاً بأنّني وربع المليون

هؤلاء متساوون في خيوط وألوان متآلفـة. هذا الارتصـاص بين البشر أمان للروح.

تستحق السّت مقبولة جائزة فعـلاً. عندمـا رحت أنهمك وأنهمـك في شغل البيت، اكتشفت وجود ألف تفصيـل وتفصيل لا يمكن لبنت متبطّلة كالّتي كنتها أن تنتبه إليه. فقط هذه الفدائيّة المجهولة، مقبـولة، أمكنها أن تعرف تنظيف الصّحن من الدّسم العالق به. المسألة ليست مجرّد مسح الصّحن بإسفنجة تنضح صابوناً وماء ساخنـاً. هناك ذرّات من الدّسم تتشبّث بالصحن كمخالب بلاتينيّة، تمتصّ الصّابـون بدل أن يمتصّهـا، تسترطب ولا تنجـرف، وتنعم بحركـة الإسفنجة عليهـا كنوع من التدليك. يجب أن تشدّ عليها بكلّ القوّة الّتي في عضلاتـك الرّخوة، وتكشـطها كشـطاً. ويجب أن تمعن النّظر بعـد ذلك إلى تلك السّطوح الملساء الغشّاشة، فعند أيّة انحناءة في الصّحن يمكن أن تقبع بثرة خفيّة أو خيط رهيف من الدّسم.

مـاذا يحـدث في تلـك الـبرهـة الغـريبـة؟ تمسـك بـالصحن، أو بالطنجرة، أو بالمقـلاة، أو بالشـوكة الصّغـيرة هذه، وأنت عـازم على مطلق النّظافة، وبعد دقائق يتسلّل إليك نوع من الرّخـاوة، والوهن. يـظلّ المجلى في عينيـك. تـظلّ الحنفيّـة، والإسفنجـة، ويـداك الغـاطستـان. ولكنّـك تصـير تـرى فقط تلك الأشيـاء الّتي لا تـراهـا أمـامـك: الـزّنـابق، النّحـل، الحقـول، شـوارع العـاصمـة، مقهى (موفنبيك)، زميل أعطى لنفسه حرّيّة المشي بمحاذاتك وتلطيشك بلغة الإعجاب والإطراء... شلّال عين مرداس.. ذلك الصّبـاح المدوّي عندما ألقتني الغارة الوحشيّة بين ذراعي ناصر.

رغم كـلّ شيء رأيتني أتحوّل من جـديد إلى مـاكينة وفيلم. مـاكينة

تجوس داخل البيت، وفيلم يجوس داخل الذهن. خلال شهـور قليلة صرت نادية الّتي تحلم داخل نادية التي تخدم. كرهت العودة إلى هـذا الثّنـائي المستحيل. قلت لنفسي إنّني ربّمـا كنت امرأة أصـابتها لـطشة الثّقـافة. لقـد أصررت في العاصمـة على أن أخـرب حياتي الـزّوجيّـة بإصراري على الدّخول في حلبة المناقشـات الحاميـة. وهأنـذي أوشك أن أخرب عقلي لكثرة ما أفتح فيه من نوافذ تطلّ على المجهول.

سألت جارتي: «يا ست سلمى، يعني نحن نمشي إلى السّوق معاً، ونرجع.. ونقعد نشتغل في المطبخ، وترتيب البيت، وغيره وسـواه.. والّـذي يشوفنـا يقول: الله يـديم عليهنّ راحة البـال.. بذمّتـك، ما عندك، في رأسك، خواطر وتذكرات تأخذك لبعيد؟»

نـظرت إليّ أمّ عبـد الـرّحمن بهلع. هتفتْ: «أنـا، لا سمـح الله، غلطت في شيء، يا ست أمّ حسّان؟»

قلت: «لا، لا، يـا أمّ عبد الـرّحمن. قصـدي، ألا يـروح عقلك لبعيد؟ ألا يشطّ بك الخيال حتّى تنسي حالك؟»

تغيّرت سيماء سلمى. بدل الهلع ظهر الارتياب والاستياء. قالت: «الله يسامحك يـا ست أمّ حسّان. يعني أنت شفتِني زاغت نـظرتي هنا أو هنـا؟ أو سمعت منّي كلمة بـراة الـطّريق؟ أو يمكن خـطر لـك أنّي واحدة عندها أسرار وتخاف منها!»

قلت بصـبر: «يـا أمّ عبـد الـرّحمن، أنـا لا أحقّق معـك. هـوّني عليك. أسألك...»

«لا، لا، يا ست أمّ حسّان. هذه لا أرضاهـا منك بـالمرّة. أنـا يا أختي رأسمالي شرفي ونيّتي الطّاهرة...»

طيّبت خـاطـر أمّ عبـد الـرّحمن، وأكّـدت لهـا أنّي أردت فقط أن

أداعبها. قلت: «الظاهر أنّي فاشلة في المـزح يا ست سلمى. الله مـا أنعم عليّ بخفّة الدّم.»

لم أبالِ بعدئذ باعتـذارات جارتي، ومـدائحها لي. فتحت لـذهني نـافذة وطـرت منها إلى الفضـاء الرّحيب. وتـركت سلمى تملأ ذهنهـا وفمها بجواهز اللّغة.

في المساء جلست وناصر في الصّالون. كان حسّان قد نام، وحيّان هادئاً في رحمي. صنعت قهـوة وجئت بها فجلست عـلى كنبة مجـاورة. بعد رشفتين أو ثلاث، أحسّ هو أنّ على لساني كلاماً. التفت نحوي وانتظر.

بنبرة حاولت جعلها اعتياديّة، قلت: «ناصر، ألا يمكنني أن أكـون مفيدة لدار النّشر؟ أساعدكم في شيء؟ أشتغل شغلة؟»

الثّواني الّتي مرّت كـانت جسيمة الـوقع. وجسيمـة الإيحاء. رفـع حـاجبيـه وقـال: «لا داعي.» صمتّ. يمكن أن يبـدأ حـريق من قشّـة كبريت.

بعد وهلة حدّثني باقتضاب ووداعة عن دار النّشر. كلّ شيء هناك على مايرام، من حيث العمل. أربعة كتب جماهيـريّة غـطّت النّفقات ودرّت أربـاحاً. ليس المهمّ هـذا. «المهمّ نوعيّـة الكتـاب. كـلّ شيء سقط لأنّنا أمسكنا بالعصا من منتصفهـا. سقط الاتّحاد السـوفيتي لهذا السّبب. وسقطت حركات التّحرير. والحركـات التقدّميّـة. لم يبق لنا غير اللّغـة. وستسقط اللّغـة من جملة مـا سقط. تعـدّدت الأسبـاب والموت واحد.»

لم يعـد لدي مـا أقـولـه. رأيتني حلزونـة صغـيرة أمـام هـذا المتـاه الصّعب الّـذي يلفّ العـالم ـ أنـا وهمـومي وانشغـالاتي الصّغـيرة. ثمّ

جاءتني الفكرة. قلت: «أنا أردت بس أن لا أنقطع عن العالم.»

هزّ رأسه برفض هادئ. أطفأ سيجارته ونهض. مدّ يده والتقط يدي. قالت ابتسامته إنّني مدعوة إلى الفراش.

قلت لنفسي سأجعل الفيلم يجوس في الآلة، والآلة تنشغل بالفيلم. وما إن أفاقت رغائبي حتّى لمست في داخلي مخزوناً هائلاً من الصّور، وتراكمات الشّعور، ونتف الذكريات. مخزون أحسسته منثوراً في خلاياي كبرادة الحديد، ويوشك أن يترنّح. وقلت لنفسي: حسناً، مادمت لا يسعني التخلّص منه في دار النّشر، فلأرمه خارجي وأنا أمارس الحبّ.

لم يكن ناصر واعياً بفيلمي. وتمدّدنا فبدأ بتشغيل فيلمه الخاصّ. في العادة، هو يتوقّع منّي الاستجابة لا المبادرة. هذه المرّة، حاولت أن أحمله وأعلو به. تتبّعت أحاسيسي وإيقاعات خلاياي، ومضيت قدماً. وبعد برهة اصطدم الفيلمان في الآلة الواحدة.

ثبّت ناصر كتفيّ بأنّ لفّ إبطه على واحد، وكلّب أصابعه على الثّاني. ثمّ طوّق خصري وحوضي بذراعه الأخرى. وأناخ بجسده عليّ.

توقّف فيلمي، لكنّ الآلة ظلّت تختلج. كيف يمكن أن أعبّر عن هذه العطالة الرّهيبة الّتي تكوّمت في قلب الحركة الّلاثبة لجسدينا، الّتي نشأت من تضارب الحركتين؟ تابعت اندفاعاتي الخاصّة، وأنا شبه واعية بأنّ ناصر ينتظر منّي إدخاله وإبرام عقد جديد بيننا. يداي ظلّتا طليقتين، أصلاً. لم يعد لهما مكان إلاّ على محيط ظهره.

توقّفت آلتي أيضاً. أدخلت ناصر، فأخذ يحاول تشغيلها. وعندما بدأت أدوزن إيقاعاتي مع إيقاعاته، رأيت فيلمي يتلملم ويتوارى من

جسدي، ويتلفلف داخل ذهني ومخيّلتي.

وصلت طبعاً. ناصر شاطرٌ دائماً في إيصالي. ولكن، وصلت إلى أين؟

في الضّحى التّالي أحسست جسمي بلا حيويّة، وروحي بلا توتّرات. لم أدرِ ما الأمر بالضبط. رأيت مخيّلتي فارغة. وذهني فارغاً. وصعب عليّ أن أعرف: هل أنا سعيدة؟ أم أنّني حزينة؟ أم على الخطّ العازل بين قطبي المغنطيس؟ لقد أفرغني جسدي.

قال ناصر: «عندنا سهّار اليوم.» وخرج إلى دار النّشر.

ما كان ليضير الآلة أن تمضي إلى سوق الخُضَر وتبتاع حاجياتها من هناك. كلّ شخص، وكلّ شيء، داعب غروري في تلك الحلبة الزاهية من البشر والمحاصيل والسيّارات والحمير. كلّ خضريّ انتقى لي أفضل ما عنده. وكلّ ميزان هوى بكفّة مشترياتي نحو الأسفل.

وما كان ليضيرها أن تفرش سيراميك المطبخ بتلال صغيرة من خُضَر الموسم وتوابعها. وتجلس على حصيرة صغيرة.. ثمّ تفتح ساقيها وتبدأ العمل. في الشّهور الأولى، رحت أنخرط في الشّغل إلى أنْ أفقد صوابي. وحتّى تصير نكهة لحمي مزيجاً عجائبيّاً من روائح الخُضَر والبصل واللّحم ونكهاتها. مئة مرّة أردّ خصلات الشّعر عن عينيَّ ووجهي، قبل أن أكتشف أنّ ناصر قد عاد لأجل الغداء وأنا مازلت مبعثرة بين المواد والطّناجر والمجلى.

وأقول لجارتي: «يا أمّ فهيم، بذمّتك، ويدي على رأسك.. يعني أنت كلّما قعدت في المطبخ، تبقى أفكارك منشغلة بالمطبخ وبس»؟

كانت فهميّة في أواسط ثلاثيناتها. وقد اختصرتُ الكلام، وتركته عائماً، لكي لا أوقع نفسي في مشكلة مجانيّة مفاجئة. إلّا أنّها أجابت

بخبث: «وأنت؟ أفكارك تبقى منشغلة بالمطبخ وبس»؟

قلت: «بصراحة، عقلي يطير من البيت، ومن رأسي، ثلاثة أرباع الوقت».

ابتسمت أمّ فهيم وأطرقت. كانت تبشر جزرة طويلة غضّة.

قالت: «أبو فهيم يحبّ الجزر».

منعتني كبريائي من الاستمرار. ومرّ صمت.

أخيراً، دون أن تكفّ عن بشر الجزرة، قالت: «بودّك نصيحتي؟ على رأي المثل: الشّباك الّذي تجيئك منه الرّيح، سدّه واستريح».

قلت: «أفّ منك يا أمّ فهيم! وما لها الرّيح؟ خلينا نجدّد الهواء شويّة».

لم أع يومها المدلول العميق لتلك الكلمات المسطّحة. علمت فقط أنّ ما قالته أمّ فهيم بعدئذ فتح شباكاً على مكامن نفسي. لقد أخذت تكشف لي بكلمات مستهلكة ونبرة خامدة، عن امرأة تخاف من الحلم وتنصحني بالإقلاع عنه، تبتعد عن الخيال والتذكرات، وتصرّ على أن تخثّر ذهنها في طنجرة وكنبة وتلفزيون. «أخذوني في عام الحلم»، قالت بشاعريّة مفاجئة، «وأنا في السّادسة عشرة. النّاس يمكن أن تصدّق أنّي متزوجة منذ عشرين سنة. لكنْ خذيها منّي: الزواج والحلم، يعني الشّقاء. يعني القلق والخصام والتوحّش. خلص: قولي لحالك: أنا زوجة وأنا أمّ، وهذا هو ما قدّره الله لي». وفجأة أخذت تمتدح ناصر وتزكّيه لي. «كلّ النّساء يحسدنك عليه. لا تخلّي وساوسك تبعدك عنه».

كنت محتاجة لسماع كلماتها، ولأن أفهم: هل في رأسها نحل أم دبابير. لكنّي لم أستحسن نصائحها. الشبّاك الّذي فتحته، دخلت منه

ريح تحمل سلسلة عجفاء من الصّور. صُوَر إلحافي على طلب الحبّ من ناصر. صور امتلاكه المطلق لسير الممارسة الجنسيّة. صور الخماد الصّحراوي الّذي يعقب كلّ ممارسة. وعيناي تجوسان داخل جسدي فتريان فيه نثارة الحديد ولون الكبريت.

لماذا أنا غير راضية؟

حاولت أن أعبّر لناصر عمّا يتهوّر في داخلي. هو لا يحبّ الخوض في مسائل من هذا النّوع. إنّ لها في نفسه طابع القدسيّة. وهو يكره تلطيخ أوثانه. غير أنّني ألححت على استماعه، مثلما ألححت من قبل على أن يحبّني. تكلّمت حتّى خيّل إليّ أنّني قد نظّفت جسمي من برادة الحديد ولون الكبريت. ثمّ صمتّ ونظرت إليه.

تلامحت ابتسامة صفراء مستسخفة على وجهه. حاول أن يخفيها، فمال نحو علبة الدخَان، وتناول سيجارة. عندما يبتسم ناصر، ينفرش شارباه على شفته العليا فيغطيانها بالكامل. وعندما يبتسم بسخرية، تتحرّك شفته السّفلى فقط، تتمدّد وتهبط، وتهبط ذقنه قليلاً.

قال: «احكي هذا الكلام لأبو حاتم، وسيقول لك أنت مصابة بانفصام في الشخصيّة. عمرك سمعت بامرأة ترتوي جنسيّاً، وبعدها تقول ما معناه إنّها عطشانة، عاطفيّاً»؟

هتفتُ به كمن اكتشفتِ العبارة الصّحيحة الغائبة: «تماماً. تماماً مثلما قلت. أنا هكذا».

«يعني أنت مريضة نفسيّاً»، قال وهو يمسح نظرته على وجهي بغير إمعان. وأضاف: «وإذا بقيت مصمّمة على فرديّتك! يخزي العين! سيكون الطّبيب النّفسي بين سهّارنا قريباً».

تذكّرت سلمى وفهميّة. واستعدت كلام ناصر. قلت لنفسي:

هؤلاء ثلاثة، وأنا واحد؛ والجمع أقوى من الفرد. والمرض النّفسي أن يكون المفرد بعكس المجموع. رأيتني فتاة مسرفة، إنسانة هي من الضّعف بحيث تعجز عن أن تكون واقعيّة.

مضى حوالي أسبوع وأنا هادئة الرّوح. ولاحظ ناصر اعتدال شخصيّتي ومزاجي. «هكذا أفضل، بالنّسبة للجنين»، قال بفرح عاقل، «المفروض أن تكوني مرتاحة نفسيّاً». وأضاف: «شوفيني أنا. بعد أن نمارس الحبّ، لا يعود في داخلي أيّ قلق. كلّ حاجاتي الرّوحيّة، أجدها ملبّاة. قلقي الوحيد: دار النّشر، ومستقبل الأولاد».

ولكنّ ها هي ذي أميّة تختلي بي في المطبخ، وتفتح قلبها: أمّ حليم امرأة لا يقطع بعقلها هدوء أمّ عبد الرّحمن، ولا تفكير أمّ فهيم. ولأنّها تحبّني، وتثق بي، وتظنّ أنّ رأسها مثل رأسي: حاشد حافل بما لا يقال. «شفّت حالي بعد كلّ نومة مع أبو حليم، أعمل سياحات، لا صارت ولا جرت. يجيء بها مخّي ويفرشها مثلما نفرش الخُضَر على أرض المطبخ. بمكاناتها، وزماناتها، وشخوصها، وكلامها، وألوانها. يا أختي، شغلة تأخذ العقل. لقاءات! لا أعرف من أين تنبق، ولا لأيّ سبب. وروحي تنعم يا أمّ حسّان. ينعم بدني. وداخليّتي. رياضة رياضة. رحلات، ومحبّات، وانتقامات، ومجادلات. وأكون أنا الملكة!»

مع حديث أميّة، رأيتني أستدعي صورة واحدة فقط: جبهتي المستندة على خشب الخزانة المعلّقة فوق المجلى، وقد أضحت حلبة لخفايا مخيّلتي. هناك راحة هائلة في أن تنشغل يداي وعيناي بالجلي، وذهني وأعين أخرى لي بتلك الرّحلات.

كنت أريد أن أصير مفردة، فرأيتني أتلاشى مرّة أخرى عبر تلك الجموع. ليس أقلّ من ذعر، ذلك الّذي سمعته من أمّ حليم. إذن، فنحن كلّنا في الهواء سواء. حتّى سلمى. بل وربّما بصورة خاصّة. وعجباً كيف لا تصطدم تلك العوالم الفسيحة، العميقة، الصّاخبة، الحافلة، الّتي تصطفق في نفوس النّساء. كيف يتّسع لها الهواء، فلا تتقاطع ولا ينفتح بعضها على بعض! كيف لا تجد لغة مشتركة، ولا مجالاً للتّعبير أو للتجسّد! في ضمير كلّ واحدة، امرأة مفردة، منقطعة عن البشريّة. وفي البيت، والحارة، والمدينة، والدّنيا.. توجد «نحن» فقط، الكتلة.. في المطبخ، والسّوق.. هذه الجموع الهائمة السّائمة!

كان ناصر يتفنّن في اكتشاف الدّسم على أدوات الأكل. إنّ له عينين مزوّدتين حتماً بأشعة كاشفة. مراراً وتكراراً أرسلني إلى المجلى لأغسل من جديد شوكة أو ملعقة أو صحناً. وكنت أقبل بذلك. على الإنسان أن لا يخطئ. وفي لحظات المزاح والمشاكسة، عندما تعجز عيناه عن رؤية شيء، كان يمسح بإصبعه على تلك السّطوح، ثمّ يقرّبها من عيني. فإذا أصررت أنّ لا شيء هناك، مسحها على وجهي بخفّة النّمس، ونهض مع نهوضي، وقادني إلى المغسلة، ليغسل لي وجهي بيديه، ونعود إلى الأكل... وعندما تفشل العين والإصبع، كان أنفه الكبير يقوم بالمهمّة. لاشك أنّ أنفه قد خلق كبيراً لأجل ذلك. «شمّي! شمّي»! كان يقول لي. ويتابع مؤكّداً: «الرّائحة زنخة! بلا كلام»!

على زوجة ناصر أن تجعل بيتها لامعاً كالمرآة. وأنا كنت زوجة ناصر - هذا البطل المحلّي ذو الصّيت الخفيف، ولكن الرّاسخ. ليست بطولته شيئاً إزاء البطولات المعاصرة في سائر أنحاء العالم. وليست

شيئاً ملحوظاً حتّى على بعد عشرة كيلومترات من الضّاحية. لكنّها كانت في الضّاحية شيئاً حقيقيّاً. واحدة من الأساطير الصّغيرة الضروريّة. وكانت بديلاً متواضعاً وعزيزاً لعالم شاسع بعيد يستحيل امتلاكه. إنّ ناصر وأبا حاتم وأبا واسع، الّذين نالوا هزيمة مجيدة أمام الجنود، يحاربون الآن على جبهة العقل. وكنت أنا الزّوجة المثاليّة الّتي دفعت من حرّ مالها أربعين بالمئة من رأس المال لتأسيس آلة الحرب هذه: دار النّشر الّتي ستستمر في قول الحقيقة بعد أن استعصى قولها بالرشّاش والقنابل.

هؤلاء الثّلاثة حملوا العالم إلى بيتنا كلّ مساء. وكالعادة كان أبو حاتم الواجهة الأمثل للتعامل، وناصر هو صلة الوصل الأكثر امتداداً وتشعّباً مع الكتّاب والمثقّفين، وأبو واسع هو المدير المالي والإداري. وداخل عشرين متراً مربّعاً، هي صالون شقّتنا، كانوا يجلسون ويشعلون لغتهم بقدر ما يشعلون سجائرهم.

كالعادة، كنت الملكة المسترة الّتي تتعهّد هذا العالم البهيج وترعاه ـ مادامت السّينما مستحيلة، والمقاهي والزيارات. لم يكن ناصر ليقبل أن نأتي بخادم تساعدني. وهو معه حقّ. لا يجوز أن يكون إنسان خادماً لإنسان.

شغل المطبخ يحتاج إلى موهبة حقيقيّة في الحساب والاقتصاد. حساب الوقت، واقتصاد الشّغل. وإذا لم توجد هذه الموهبة، فألف حسرة على المرأة. هناك فقط هذه الفرصة لكي لا تفقد عقلها أو تبدّده: أن تحسب وتحسب... بماذا تبدأ، وماذا تضع على النّار، وماذا تفعل أثناء تشغيل النّار، ومتى تقشّر الثّوم أو تفرم البصل، ومتى تغتنم الفرصة وتجلي الأدوات الّتي استعملتها، ومتى تذوق الطّبخة،

ومتى تعمل خلطة الطّعام أو خلطة السّلطة. . ألف حسبة وحسبة.
كلّ امرأة لا تنظّم شغلها في المطبخ، ولا تحسب كيف توفرّ وقتها، تُسْلِم عقلها للفوضى والتفكّك، وتُسْلِم جسمها للتعب والاتّساخ. حتّى إذا جاء وقت الرّاحة، لم تجد راحة على الإطلاق. وجدت فقط الخواء والعطالة والدويّ الأجوف.

عندما أنصتّ لأحلام أمّ حليم أوّل مرّة، كانت ردّة فعلي هي الانذعار. انتبهت فجأة إلى أنّني لست وحدي الّتي تعمّر في النّهار عوالم فسيحة، حافلة، صاخبة، ثمّ تهدرها في اللّيل بين انخطافات الشّبق واستنقاعات التّعب في العروق.

في المرّة الثّانية تضاءل الذعر على مهله وحلّ محلّه العجب. كنت متأكدة أنّني يمكنني التّحدث إلى مئة ألف امرأة غيري. وأسأل: «هل أنت مثلي تسندين جبهتك على الخشب فوق المجلى، وتحلمين»؟ وقد أخذت أمّ حليم تقول وتقول. وأخيراً ابتسمت بنشوة فائقة واختتمت: «كله حكي يا أمّ حسّان. بس يشهد الله الحكي راحة».
عندها رُدِدْتُ من فضاء مخيّلتي إلى أفق لغتها.

للّذين يتّهمون النّساء بأنّهن ثرثارات، أقول: إنّنا نصنع من اللّغة أحلاماً. إنّنا نصنع منها عالماً أخضر يوازي العالم الرّمادي للصمت. والصّمت هو النّهار. هو البيت والزّوار والسّرير ودار النّشر. أو نصنع منها غباراً متكاثفاً، ونرميه في مسام الصّمت. أو أرجوحة فيّاضة نطلقها بوجه الوجوم.

في الشّهور الّتي تلت ولادة حيّان، صرت واعية تماماً بحالة الذعر الّتي تخلي مسافاتها لحالة من السّحر. خشيت شيئاً واحداً فقط. هو أن يكتشف ناصر حالة السّحر فيكتم عليها مثلما يكتم على جسدي.

أردته أن يبتعد عن هذه المملكة الصّغيرة الخفيّة الّتي أدخلها، وأقيم فيها، وأشيّد هناك مضارب حياة أخرى.

لم آبه لاعتراضات السهّار على صمتي، أو على غيابي عن المائدة. ابتسمت وحسب لقول أبي حاتم: «جاء حيّان وسلب الحياة من سهراتنا. ما هذا يا نادية؟ نصف نساء العالم أمّهات؛ لا تظنّي أنّك الأمّ الوحيدة»!

حتّى ناصر ـ تركت لغته تعبر أذني كالأشباح والأصداء. دار النّشر ونجاحها المطرد الوئيد، وعلاقاته المتّسعة المتشعّبة، وانتصاراته على أمثال هلال مطر... لغة جسده وتقنيّاته المتطوّرة في استنهاض شهوتي واستنفارها... تلك اللّمسات المدروسة المتقنة، تحطّ على الأماكن الأكثر قابليّة للالتهاب في جسدي... لغة حركاته وسيماء وجهه... وانهماكي في الخواء والعطالة: سرير حيّان، مغلاة القهوة على النّار، المكواة الّتي حميت... كلّ هذه الدروع لبستها حفاظاً على مملكتي الخفيّة من لغات ناصر.

ثمّ حدث ما كان يجب أن يحدث، ما كان ضروريّاً وشافياً أن يحدث؛ وربّما فادحاً. انفجر ناصر. انفجر في أبعد زمان ومكان عن توقّعي لانفجاره.

بعد أن استنفد كلّ تكنولوجيا الجنس المتطوّرة الّتي يتقنها، وبعد أن زحر ووصل وانهمر، أشارت أصابعي لخاصرته أن ينزاح عنّي قليلاً.

نهض. غادر السّرير. غادر غرفة النّوم. غير أنّي قبل أن يتاح لي الوقت الكافي فأرتاح، عاد وبيده علبة دخانه ونفّاضة سجائره. أشعل سيجارة، وأوكأ نفسه على السّرير.

قال: «نادية، نحن مضى على زواجنا ثلاث سنوات»...

فهمت أنّه سيقول شيئاً رهيباً. أحسست المعاني سلفاً في داخلي. وترقّبت خروجها مجسّدة في لغته. لذلك لم أستطع أن أسمع كلامه. مضت دقيقتان، أو أكثر، وأنا أحاول النّفاذ من بين قطرات المطر.

كان لابدّ أخيراً من أن أسمعه: «حتّى أذنك الآن، الآن، لا تسمع ما أقوله».

التقط معصمي بيده الطّليقة فشلّ ذراعي بأكملها. «هاتي خبّريني مدام. ثلاث سنوات ونحن زوجان بالحلال. ثلاث سنوات، وعندنا ولدان. الآن، بعد ولدين، تصيرين مثل الجثّة تحتي! هاتي خبّريني. أنت صايرة آلة، لا أكثر ولا أقلّ. آلة في النّهار، وفي اللّيل. بيتك مرتّب، لكن مثل المقبرة. أكلك جاهز، لكن بلا طعم. وجودك محسوس، لكن بلا فرح».

لم أعرف ماذا أقول، ولا كيف أقوله. أردت فعلاً أن أتكلّم. لكن الزّحام في رأسي، والخوف الخائر، والكلمات الحائرة، أسدلت على وجهي ورقة بيضاء.

لذلك تابع هو: «أنا أيضاً، بالنّسبة لك، آلة أحتاج للأكل، تضعين لي الأكل. أحتاج للقهوة، تعملين لي قهوة. أحتاج للجنس، تسلمين لي جسمك، وفوراً تريدين الانتهاء والخلاص».

هنا خرجت لغتي من قمقمها. لم تكن عنيفة على ما أذكر. قلت: «أنت الّذي تحكي عن جسمي، يا ناصر؟ متى أردت منه أن يتكلّم مع جسمك؟ قل لي. من أوّل يوم طعنته، وأدميته، وشقّقته»...

صاح هو وقد ترك معصمي: «أنا شرحت لك الفائدة النّفسيّة لهذه الطّريقة. لكن الظاهر، أنت لا تفهمين»...

لكنّني تابعت: «بين المحبّين لا توجد طرق. يوجد الحبّ وبس. وأنت حتّى اليوم، كلّ ليل تترك جسمي مُضعضَعاً. تتركه عجينة. وتترك روحي على جمر. أنت الّذي تتركني وتريد الانتهاء والخلاص»...

«أنا! أنا مرّتين أوصلك! وتقولين»...

«تتركني وحالتي بالويل. جسمي مهدود ومتوتّر. ملخبط ومشدود»...

«أنا!» صرخ هو بوحشيّة. «أنا ألمسك كما يلمس الواحد لؤلؤة! أخاف عليك مثلما يخاف الواحد على البلّور»...

«أنت هكذا تظنّ...»

«وأنت تعاملينني كأنّني كتلة حديد. كيفما كنت في هذا البيت، أراك سارحة، وشاردة»...

«نعم، سارحة وشاردة. لأنّ عقلي وخيالي دائماً في حالة قلق».

«قلق! المدام قلقة، ما شاء الله! عندها دار نشر عليها تطويرها.. عندها مسؤوليّة أمام الأجيال والتّاريخ، عليها القيام بها.. عندها..»

«نعم. هذا كلّه عندي. لكن، ولا فرصة عندي لأحقّقه. والفضل لك. أنت حصرتني في هذا البيت، وهذا النّظام. وحصرت نفسك خارج البيت وفي نظام ثانٍ...»

«قلتها أخيراً. اعترفت».

«اعترفت بأيّ شيء»؟

«ناصر الإنسان، ناصر المناضل، الّذي يتعب ويشقى ليل نهار، لا يهمّك. تهمّك فقط أنانيّتك. وحبّك للظهور. وحبّك للسيطرة...»

«ناصر! اسمعني وافهم معاناتي. عقلي وخيالي، دائماً في حالة

قلق. أنا أهرب من قلقي. افهم هذه الكلمات البسيطة.»

بسخرية غضبى ردّ هو: «وتقولين لي: افهم! ما؟ يعني أنا شبه أبله عندك».

لم أعبأ باعتراضه. تابعت: «أنا أهرب إلى أشياء غائبة عنّي، وأمكنة بعيدة. كلّ يوم، كلّ يوم. أهرب إلى بلدتي. وإلى السّت مقبولة. وإلى المخيّم. والعاصمة. ودار النّشر الّتي لا أعرف شكلها. وإلى مقهى (ويمبي)، بأزاركم أنتم ورجال الأعمال. نادية روبحة تنسلّ من نفسها إلى عالم أحلام يريحها. . .»

- «أنت مجنونة. خالعة».

- «. . . تحمل إليه مشاعرها وأفراحها. وفيه آلاف الوجوه والأصوات، والرّوائح والأمواج. . .»

- «وتنسى أنّه عندها أولاد، زوج، ومسؤوليّات، ومجتمع. . .»

- «طظ»! صرخت. وصمتنا كِلانا بعدها.

ليس ناصر شريراً. ولا محبّاً للشجار. الحياة العائليّة عنده قدس. وهذه هي المشكلة. كلّ قدس عند ناصر مشكلة. عندما تأملته في الصّباح، وهو يعقد ربطته أمام المرآة، قلت لنفسي: هذا الرّجل الّذي أحبّه لا يتقبّل طريقتي في تقديس الحياة العائليّة؛ فإمّا أن أنضبط بالقوالب القدسيّة، وإمّا أن أسقط في برميل الخيانة.

لو أدري فقط لماذا طالت محاولته لفّ الرّبطة حول عنقه، ذلك اليوم. المهمّ أنّها طالت. عقدها وفكّها، عقدها وفكّها. ثمّ عقدها من جديد. شدّها، أرخاها. أمالها ذات اليمين وذات اليسار. ثمّ فكّها. . .

حملت عيناي ذهني إلى فضاء آخر. كنت جالسة على الأريكة الّتي

تتوسّط الصّالون وتطلّ على المزينة. وأقبل ناصر أخيراً. رغم أنّ وزنه زاد في الآونة الأخيرة، فهو مايزال أميل إلى النّحافة. إنّه طويل بين الرّجال. شارباه مهابة مطلقة. وعيناه الشّاردتان مرفآ أمان. ولقد تذكّرت كلام أمّ فهيم عن الرّجل المهيب الّذي يكون محور حياة زوجها وعقلها. «يكفي أن يكون لك هذا الرّجل»، قالت لي بحنان وجلٍ، وغبطة حاسدة. «يكفيك أن تنتظري رجعته كلّ يوم. وتستقبليه وهو يرجع. وأبو حسّان رجل عائلة، العين تحرسه. لم أره نام في يوم برّاة البيت».

كنت في واد آخر لحظة انصفق الباب وراء ناصر. خطر لي أنّ إحساسه بمهابته ذلك الصّباح لم تكن له أيّة علاقة بشاربيه، وإنّما بربطة عنقه. هذه الكبرياء، الهالة، الخطورة، الّتي نتحت منه وهو يعبر الصّالون حاملاً حقيبة أوراقه.. إنّما جاءته من الأربطة.

تلك الأربطة! هتف صوت من داخلي. ما إن يولد الإنسان حتّى يربطوه. ويكبر ويظلّون يربطونه. ويكبر أيضاً فيصير يربط نفسه. أربطة أربطة أربطة... وظللت أكرّرها حتّى اصطفقت الحروف أمام عيني وتلاطمت وغدت مجرّد أصداء.

وأنا نادية رويحة ذات الأربطة.

هتفت أمّ حليم الّتي دخلت فور خروج ناصر: يا ختي! عامل لحالة ثقلة كأنّه ربّ العزة»! عندما يخرج الرّجال من العمارة، تصير للنساء كينونة مختلفة. حتّى أمّ عبد الرّحمن، ذات الخيال النّاشف، تتفتّح بكاملها للحديث، لا أذناها فقط. تتحلحل الأربطة، فتفد إلينا لغة أخرى وخيال آخر. «لأنّنا مقهورات يا أختي»، غمغمت أمّ حليم، «يظن الرّجال أنّهم فعلاً أرقى منّا على درجات الخلق». وأطلقت تنهدة طويلة واجمة.

لم أكن في حالة تسمح لي بطلاقة الحديث ذلك الصّباح. لم أتبادل الأحلام مع أمّ حليم، ولا الأفكار مع أمّ فهيم، ولا عبارات الرّضى مع أمّ عبد الرّحمن. أردت أن أفتح نافذة وأطلّ منها على مستقبل حياتي. لكن وجود جاراتي زادني تقمّطاً بنوع خاص من الخوف: خفت عندما يصل بي الزّمن إلى أعمارهنّ أن تصل بي الحياة إلى هزيمتهنّ.

رأيت مدى هشاشتي وحاجتي إلى الصّحبة. لكنهنّ لمسن منّي شيئاً، فجعلت كلّ واحدة تتعذّر عذراً وتخرج. حتّى أمّ حليم همست وسط إصرارها على الخروج: «أنت مشقلبة اليوم يا أمّ حسّان. لا تزعلي منّي. هاتي حيّان لأريحك منه».

انفتحت النّافذة بعد خروجهنّ، إنّما على أمد من الكآبة. كآبة علت وتكاثفت وعلت، كغبار الخماسين. ورأيتني دون أن أتحرّك أصير في قاعٍ تشكّل فجأة، وراح العالم ينهض من حوله ويتعالى حتّى فقد ضوءه وأصواته.

كان ناصر في حالة مماثلة. ذلك لأننا كِلَيْنا نأخذ أمور حياتنا بجدّيّة ثلجيّة. ونخاف أن تصير التّفاصيل دماراً للشوامل. ثلاثة أيّام من الصّمت الخماسيني مرّت علينا. تكوّم الغبار وانجبل على رأس دبّوس رهيف، وجعل رأس الدّبوس يتوغّل في لحم روحي. وهناك فحّ غباره وقد صار سديماً أسود. لم أعرف ماذا حدث لي. فقط شاهدت ما حدث. شاهدت السّديم الأسود يتعلّق وينذري داخلي كعاصفة موسميّة ـ لا تحمل مطراً وإنّما هباباً.

شيء واحد فقط حال دون لمع البرق وقصف الرّعد، لم أكن أعرف ماذا أفعل. نحن البشر لا نأخذ منازعاتنا بجدّيّة كافية. نظن أنّ

الضّرورة ستقهر الشقاق وتستعيد الوئام: ضرورة أن نكون معاً.. قدسيّة أن نظلّ معاً. ولكن لماذا يظلّ اثنان معاً إذا خلت هذه المعيّة من الطّعم واللّون والرّائحة؟ غير أنّ عجزي عن الفعل لم يخفّف من تصميمي.

هذه لم تكن مشكلة عند ناصر. دائماً كان الحل عنده أن نكتب عقد ملكيّة جديداً. يجب أن أعترف أنّ طريقته في متابعة الحياة هي الأروح والأسلم. لم يكن ناصر ممّن يتمسّكون بالشّقاء. ولأنّ الشّقاء في رأيه قدر محتوم، فقد عرف أنّ كلّ مجابهة معه ستكون مدمّرة. أفضل شيء هو الالتفاف حوله، ثمّ رميه وراء ظهر أصمّ. كلّما كتبنا عقد ملكيّة جديداً، كان يقول لي فلسفته هذه بعبارات جديدة. غير أنّني، بعد أربع ليالٍ، بعد أن تهالكنا على السّرير في حالة مباغتة من القطيعة الرّوحيّة الخفيّة، قلت له: «ناصر، أنا شكواي ليست من الخناقات. شكواي أنّني لا أشوف لحالي كياناً بين هذه الجموع».

قال هو بحموضة: «أنت صرت تردّدين تعابير أبو حاتم».

لماذا أستبق الأحداث؟

سأبدأ من البداية. من اللّحظة الّتي قرّر ناصر فيها إبرام عقد ملكيّة جديد بيننا، لحظة أفهمتني حركات جسمه على السّرير أنّ هذا اللّيل سيختلف عن اللّيول الأربعة الماضية. ثمّ عزّزت هذا الفهم أنفاس فمه المتابعة الّتي لفحت كاهلي وعنقي.

هذه الأنفاس سلبتني صلابة صمتي. كنت مصمّمة على أن أضع حدّاً للتضارب القاصم في حياتي بين الواقع والخيال. عجزي عن الفعل في الأيّام الماضية لم يعن أبداً أنّني سأعود من جديد إلى اجترار شقاء أيّامي وعشرتي. أنا لست قادرة مثل ناصر على أن ألتفّ حول

شقاء روحي، أراوغه وأرميه وراء خيالي ومطبخي. حاولت، ولكن فشلت. رأيته يلحق بي ويدركني قبل أن أبلغ أيّ مكان. يعود إليّ، إمّا بشكله القديم وإمّا بشكل جديد. وقرأت في أوجه جاراتي الثّلاث المصائر الثّلاثة الّتي تتربّصني.

لكنّ الأنفاس سلبتني متانة صمتي. رأيتني سخيفة في إصراري على تعكير هذا الصّفاء: ها هو ناصر يبدّد السّديم الأسود من عروقي. ويتدفّق داخلي كهبوب منعش لرياح البحار.

صرت أضعف من أن أقف أيّة وقفة. عرّاني من رداء نومي وملابسي، فتعرّيت من ذاكرتي وكياني. تلقيت أنفاسه، وتلقيت رغبته، فانفلت عزمي وصفاء ذهني خارج أروقتي. في لحظة ذعر انتبهت إليهما يهربان مني فأرتمي في السّديم والتبدّد. نهضت وعدوت وراءهما. أمسكت بأذيالهما. لم يكن قد بقي لهما مكان في خارطتي، لكنّني سمّرتهما على محيطها. وقبعت على بعض فراشي منتظرة المبادرة التالية. إذا لم أكن قادرة على أن أقف وقفة، فلأحاول على الأقلّ أن أعرف كيف يحتلّني.

راحت أصابعه تلمس بؤر الشبق في جسدي وتضغط على مكامنه. وصرت أتوتّر وأنخفض وأتورّم. كان لابدّ من الضّغط لكي يتلملم جسدي وينفث ورمه. ضغط الأصابع، وضغط الشّفاه، وضغط الأطراف والبدن. ضغط يرصّ الخليّة على الخليّة، ويمنعها من الانفطار. شهقت أطلب الضّغط. شهقت أطلب قالباً ينحشر داخلي، أو قنينة تنسدّ عليّ بسدادة محكمة. خوفي المزمن العريق من اللّيلة الأولى صار طلباً لاهفاً لانشطاراتها ونزيفها. مساحات شاسعة من جسدي ظلّت عارية غير مغطاة، غير محتواة. ورأيتني مهدّدة بالتّلاشي. يجب أن يسرع ناصر إليّ.

وأصابع نـاصر تثب عليّ من مكـان إلى مكان. واحتكـاكاتـه تمرج وتفرّ، تمرج وتفرّ. وأنا أوشـك أن أتبدّد وأن أنـذري. وأشهق طالبـة وعاء ولملمة وقالباً. ثمّ يهبط ناصر عليّ. وأنـا أتلقّاه وأتلقّفـه. يرضّني ويحشرني ويفقـأ انتفـاخـاتي. وأنـا أشهق وألفظ الهـواء الهـارب من خلاياي. ناصر يثب داخلي، وأنا أتصمّغ به. . .

في تلك الثّواني الّتي يحدث فيها الطيران، الّتي تفيض فيها الينابيـع والشّمـوس، كان ذهني المتهـزهـز عـلى محيط خـارطتي يـراني متعلّقـة الأطراف ببطن الحصان، والحصان يرمح في الفضاء ويرمح ويرمح.

مثل صورة غابت برهة عن شاشة التلفزيون، ثمّ عادت، وجدتني كمن أفـاقت أخيراً من مخـدّر قويّ، سـاءلت نفسي مـذعـورة: كيف أسلمت جسدي لهذا الرّجل؟ استعدت اندفاعاتي إليه بشيء من الهول وكثير من القرف. وجـدتني أعود أخيـراً من غيبوبـة الردى. تلملمت على طرف فراشي مذعورة، وقبعت هناك أسائل نفسي: كيف أسلمت جسدي لهذا الرّجل؟ غمرني طمي خانق من الصّـور. صور أصـابعه وهي تكبس على أزرار جسدي كما تكبس على أزرار جهـاز التحكّم، فينتقل جسدي من محطّة شبق أولى إلى محطّة بعدها، ومحطّة بعدها.

كـان وجهه راضيـاً، وعيناه عـائمتين. بحثتـا عن علبة الـدّخان. وبعد إشعاله السّيجارة نـظر إليّ بابتسـامة رغيـدة. لبثت في مكاني. لم أجـرؤعلى السّـماح لوجهي بـأن ينـطق بـأيّـة كلمـة. خفت. خفت إن فتحت فمي أن يخرج منه قيـح بدل اللّغـة، ويطفـوعلى وجهي بنتنـه وروائحه.

لـذلك أغمضت عينيّ. جعلت جسمي يـزعـم لناصر أنّي معجـونة بـالارتواء الجنسي، وجعلت عقـلي يتشبّث بكفّتيْ ميـزان نجحت حتّى

تلك الدّقائق في جعلهما متوازنتين: خيالي ومطبخي.

ربّمـا لهـذا السّبب، ربّمـا لأنّني أغمضت عينيّ ورأيت الكفّتـين، شاهدت نادية الآلة الّتي تتحرّك ضمن دوائرها وحـلازينها. شـاهدت أيضاً نادية ذات الأربطة، وقد صارت نادية ذات الأزرار. وشـاهدت رؤوس أصابع نـاصر تلمس هنا الـزّر، فهذا الـزّر، فذاك، وتتحـرّك الآلة إثر كـلّ لمسة، تتحـرّك، تستجيب بحسب البرنـامج الّـذي ظلّ ناصر يلقمه لجسدي وتلقّياتي طوال ثلاث سنوات.

ذلـك هو الهـول. أحسستـه لحـظة أغمضت عينيّ. انكشف أمـام ذهني، وملأ أفقاً. بغمضة عين رأيت ما كان يجب أن أراه منـذ اللّيلة الأولى. ثلاث سنوات وأنـا أردّد: حبّ، حبّ؛ وأقول: نـاصر، دار النّشر، الأولاد؛ وهـأنذا أجـد أنّ حياتي كلّهـا قـد صـارت آلـة. إذا وضعت خيـالي جانبـاً، لم يبق لي شيء أتمسّـك بـه. حتّى الحبّ صـار آلة.

كان ناصر يقول: «ها! شفت كيف؟ ذابت الشكـوى بعقد ملكيّـة جديد».

أغلب الظنّ أنّه كان ينظر إليّ وأنا مغمضة العينين، ويراني سابحة على بساط الرّيح.

فتحت عينيّ. قلت له: «ناصر، أنا شكواي ليست من الخناقات. شكواي أنّي لا أشوف لحالي كياناً بين هذه الجموع».

وردّ هو بحموضة: «أنت صرت تردّدين تعابير أبو حاتم».

نهضت.. وثبت عن السّريـر. أحسست أنّ عليّ أن أسـتر عـورتي قبل التفوّه بكلمة واحدة. ليس فقط لكي أبطل شغل الأزرار المبثـوثة

في بدني الملقّم بالبرامج، بل لشيء أفدح بكثير. رأيت ناصر أجنبيّاً عني، ورأيت جسمي كلّه عورة.

أسبلت ردائي عليّ. وبقيت واقفة. قلت: «ناصر، أنا لم أخلق لهذا النّوع من الحياة الّذي رتّبتني لأجله».

كان يهمّ بإطفاء عقب سيجارته، فتوقّف. «أيّ نوع رتّبتك لأجله»؟

جلست. تربّعت وأسندت ظهري إلى الحائط. لم أجرؤ على المتابعة. تفرّست في وجهه فقط: كلّ أفراحه غاضت. أقعدني الخوف. هجرتني اللّغة. عجزت. الصّمت الصدئ والسّكون الميت صارا مرفئي.

«أيّ شيء قصدك»؟ قال هو بهدوء تربّصيّ.

قلت: «أنا أحببتك قبل أن أكون زوجة. وقبل أن يصير عندي ولدان. أحببتك مني لك. وكنت حرّة في حبّك. كنت أنا أنا. أحببتك لأنّك دخلت حياتي مع الزنابق والحجل والنّحل. ولأنّي دخلت حياتك مع المخيّم. الآن، أنا غير أنا. وأنت غير أنت. أنا ما عاد لي كيان. والحبّ صار آلة».

همهم هو بأناة. أشعل سيجارة من الأولى. مرّة أخرى رأيت ناصر اللّاعب بالأزرار. الواثق من أدوات سيطرته. إشعال السّيجارة. التأنّي والرّزانة. وكلّ هذه المظاهر الموحشة المرهبة.

قال: «تعابير أبو حاتم، وأفكاره، كما أنّه».

منحني الضّيق بعض الشّجاعة. هتفت: «لماذا أبو حاتم؟ يعني أنا بلهاء، ما عندي أفكار ومعاناة خاصّة بي»؟

تفحّصتني عيناه قليلاً، كأنّه أراد أن يقرّر هل أصير موضوعاً

للغضب أم للسخرية. قال: «لا. كلّ إنسان له أفكاره ومعاناته. لكن كلّ إنسان له عقله. رومنتيكيّة الحقول ومثاليّة المخيّم، هذه انكسرت. وأنت، حان لك أن تكبري، وتبطّلي شغل المراهقات».

وفجأة رفع يده أمام وجهي وصاح: «أنت، بودّك أيّ شيء، بودّك؟ قولي! لأنّك دفعت دولاراتك للدّار، يعني، صارت الأمومة والحياة الزّوجيّة قليلة عليك»؟

صرخت أنا الأخرى: «أنت قل لي، أيّ شيء بودّك؟ لأيّ شيء ممنوع عليّ الاقتراب من دار النّشر؟ لأيّ شيء ممنوع عليّ شرب فنجان قهوة في (ويمبي)؟ لأيّ شيء ممنوع عليّ حتّى الجلوس مع ضيوفي؟ أنت قل لي»!

هدأ. أشعل سيجارة جديدة. رأيت شاربيه متهدّلين تماماً، ووجهه هرماً كوجه بوم. «سأقول لك»، تمتم بتماسك. «لأنّنا مشينا لقدّام أكثر من اللاّزم. فرطنا لأنّنا تقدّمنا بزيادة. صرنا في خطر. إذا استمرّت مسيرتنا بهذا الشكل، خرجنا من التّاريخ. من الحياة. المطلوب الآن المحافظة على مكوّنات حياتنا... حتّى لا نفقد هذه الحياة».

«شويّة ثانية، وتلبس الجبّة والعمامة، ما شاء الله»!

«سأفعل أيّ شيء لئلاّ أنهار».

صحت به وقد ضاق صدري: «ناصر! من أسبوعين بس كنت تقول لضيوفك: تأخّرت أستبقي الحياة فلم أجد/لنفسي حياة مثل أن أتقدّما! وقلت: دار النّشر ستتابع المسيرة»!

صرخ هو عبر زوبعة من الدّخان اندفعت مع كلامه: «ماذا أقول غير هذا، ماذا أقول»؟

نهضت عن السّرير كالمجنونة، وصرخت أنا الأخرى بجرأة فادحة: «يعني أنت متناقض! يعني أنت تكذب عليّ! وعلى رفاقك! ويمكن على حالك»!

هتف بهدوء: «متناقض، نعم. كذّاب، لا. والزمي أدبك، لا تستعملي كلمات مهينة. عندي ما يكفيني من الألم بسبب تناقضي».

تابعت صياحي: «وتلوم أبو حاتم على علم النّفس. تتّهمه وتحقره. على الأقلّ هو عنده شيء يؤمن به»!

تمتم بشيء من الرّجاء: «أنت غلطانة. أنا لا أقول أيّ شيء لا أؤمن به. ما أقوله يسري في دماغي مثلما يسري الدّم في عروقي. ما أقوله نابع من أعماق وجداني. وأنا وجداني لم يتغيّر. ولا يمكن أن يتغيّر».

جلست احتراماً لكلامه، وأطرقت. كانت الضاحية خرساء تماماً. وكان الصّمت كثيفاً حتّى لتلمسه.

قال ناصر: «مشي الحال؟ وقّعنا على عقد جديد»؟

قلت: «لا. أنا أريد أن أكون شيئاً. ولازم أكون صريحة معك. أوّل مرّة لقيتك فيها، حمّلتني قنابل، ودفعتني لأختبئ داخل دغلة. اليوم، أنا شايفة حالي، الوضع هو هو».

لم يكترث. بدا في تلك اللّحظة رجلاً أرهقه ما يتحمّله من كلام طفلة مراهقة. لم يُبدِ أيّة عدوانيّة. ابتسم، ونهض فناولني بلوزتي. «تشربين قهوة»؟

ذلك كان منتهى رعايته: أن يصنع هو، وليس أنا، القهوة.

بعد أسبوعين فهمت موقفه. لقد أقبل عليّ متأبّطاً تكنولوجياه الجنسيّة بإصرار مضادّ.

لابـدّ من القول إنّ نـاصر قد بـرع في استخدام هـذه التكنولـوجيا معي. نبغ. شهراً كاملاً وهو يطارد جسدي كلّ يوم. لثمة متأنيّة على الكتف، تشعـل الفتيل. تلك الخـطوط الدقيقـة النّافـرة عـلى شفتيـه الصلبتين، تحطّ هناك، وتروح وتجيء. تشقّ جروحاً منعشة بالطول، تلهب دمـاءها، ثمّ تمسحهـا بـالعـرض. الـطّول والعـرض، الـطّول والعرض. ثمّ الاثنان معـاً حركـة دائريّـة، فيفور لهب الـدّم في كتفي ونحري وكاهـلي. ثـمّ فمه يسري مـع السّريان، بـالعرض والـطّول، بـالعرض والـطّول، وصدري وظهـري يختلجـان ويفـوران. وشفتـاه الصّلبتـان تشقّـان الـطّريق أخـاديـد أخـاديـد. وتتقـدّمـان نحـو خطّ الاستـواء. وتصبّان في بـركة من الهـلام الباخـر هي عنقي. وأجفـاني تنطبق. وجسمي ينبثق. وذراعا ناصر تتلقفاني. وأنا أفور وأتـدفّق في حضن ناصر.

أفور وأتدفّق.

غادر ناصر البيت في وقتـه الصّباحي المعتـاد. أنزل حسّـان وحيّان معه إلى جاراتي في الدّور الأرضي. أمّا أنا فبقيت مبعثرة عـلى السّرير. يجب أن أعـترف أنّ الرّضـا الجنسيّ سيّد الـرّضاءات ـ عـلى الأقـلّ في حينـه. وهذا التمـدّد والارتخاء يلمسـان الجسم والخيـال، ويقـذفـان الهموم والتوتّرات خارج الأفق.

وهكذا فعندما أفقت تذكّرت منامـات مشوّشـة، وصوراً متـداغمة متقاطعة. جلست في السّريـر وشرعت أتابعهـا مع يقـظتي. كلّ شيء انبثق كـالعادة: تمـوّجات الحقـول، اندفـاعات النّسـائم والسّناجيب، وانفسـاح البحر في الأفق البعيـد، ثمّ النّحل والفـراشـات والأزهـار، وبقـراتنا الثّـلاث... ولكنْ دون ناديـة رويحـة التي تجمـع كـلّ هـذه الخلائق حولها.

بالأحرى، رأيت نادية رويحة، فتاة، امرأة، هي أنا، تتواثب في المقثاة. وأنا، الجالسة في سريري، المتمنّية فنجان قهوة يأتيني من تلقاء نفسه، أتفرّج عليها، وهي تتحرّك وتقف وتقرفص وتقوم وتركض ثمّ تجلس بين خوابي العسل لتناول فطورها.

شيء مضحك، ومسزٍ. ما هذا! بعض منّي يخرج إلى هناك، وبعض يكسل على السّرير.

ثمّ دخلت سلمى. من بين جاراتي الثّلاث، «أمّ عبد الرّحمن»! هي المرأة الّتي يمنحها ناصر ثقته الرّاسخة. ربّما لأنّها كانت فائرة ذات يوم، ثمّ همدت. «ست مكمّلة! تعرف قيمة زوجها؛ مع أنّه لا قيمة له»، كان يقول لي؛ وأنا أحملق فيه مثل البلهاء، لا أفهم ماذا وراء كلماته، ولا حتّى داخلها.

ذلك الضّحى فهمت. لحظة انفتح الباب ودخلت هي حاملة حيّان على صدرها وساحبة حسّان بيدها، رأيت في نظرتها شرحاً. لم تتفسّر لي لغة عينيها. ثمّ تكلّم لسانها فأفصح. كانت مغتبطة. وحركاتها الرّصينة الهادئة تشي بحجم خفيّ ولكن هائل من الجيشان، ومن الأخوة والمشاركة الوجدانيّة، بل وحتّى الرّغبة في العناق.

«هه، ست نادية»، قالت وهي ترخي جسمها إلى جانبي، وتحاذر في الوقت نفسه أن تترنح صينيّة القهوة بين أصابعها، «يا أختي افردي وجهك شويّة»، قالت. «الّتي مثلك، يبسطها زوجها كلّ هذا البسط، ويعركها كلّ هذا العرك، تكون مضوأة بالرّاحة والرّخاوة». وقالت: «أو يعني ما شبعت»؟ وبعد تمعّن قصير في وجهي أضافت: «لا أصدق. الأستاذ ناصر تاركك وأنت منطفئة على الآخر».

أخذني فضاء من العجب. أمّ عبد الرّحمن تصدر عنها هذه اللّغة!

لم تكترث كثيراً بـدهشتي. ابتسمتْ لها فقط. واتّحـدت تعابـير وجهها بتعـابير لسـانها، لتقول لي إنّـه قـد آن الأوان لكي نكـون صـديقتـين حميمتين، وإنّها تفهـم الحياة جيّـداً، وتعرف أنّ راحـة المرأة هي فقط في أن يضمّها زوجها ليلاً و«يبسطهـا». كلّما تجمّع الضيق والشقـاء في روح المرأة، غسلهما الرّجل بذلك الصّـابون اللّزج. والّتي يكـون الله راضياً عنها، يكون زوجها راضياً عنها.

إحساسي بأنّي قابعة وسط مستنقع من المرارة، اكتمل ذلك المساء. بعد كلام أمّ عبد الرّحمن سألت نفسي: أأنا حقّـاً هذه المـرأة الّتي رأتها جارتي؟ لم أعثر على جواب. وإذ بـدأت السّهرة بتجـديد الهجـوم على أبي حاتم واتجاهاته المضادة للتقدّم، فاض فيّ ضيق غير مفهوم، كأنّني رحت أتأثّر بالجواب قبل أن أعيه.

كـان ذلك اليـوم سلسلة من المفاجـآت. قـال نـاصر في السّهـرة: «انتبهـوا يا جمـاعة. انتبهـوا كلّكم. هذه الكبـوة الّتي أصابت حـركـة التّقدّم، يجب ألاّ تسلب عقولكم. نحن سننتصر. أنا مستغرب تمـاماً هذا الإحباط»...

لا يهم كثيراً فحوى مـا قالـه ناصر. المهمّ هـو تلك اللّغة. نـاصر الّـذي تركني شبـه جثّة مهلهلة أواخـر اللّيـل، سمعتـه ورأيتـه أوائـل السّهرة يطلق لغة نابضة، متوتّرة، متينة.

والمهمّ أيضـاً لغة أمّ عبـد الرّحمن. طبعـاً. بعد كـلّ ذلك الجـلال والحشمة، ذلك التّكتّم والعفاف. لقد حسبت ذلـك فيها فـطرة. وها هي ذي تنشقّ فتخرج منها تلك اللّغة. كأنّ معبـداً قد انفتـح لينطلق منه شيطان.

انسحبت إلى المطبخ وجلست هناك.

شيطان؟ اللّغة بحد ذاتها كانت صلبة، حقيقيّة، دسمة وعابقة. لكنّ الّذي تكلّمها كان شيئاً أشبه بقرين يسكن أمّ عبد الرّحمن، لا أمّ عبد الرّحمن نفسها.

والمهمّ أيضاً، لغتهم هم ـ الّذين جلسوا حول مائدتي يحتسون العرق ويلتهمون التبولة والكبّة وتلك الأطباق. لغات. كلّ واحد له لغة. وأسئلة وأجوبة وتوكيدات ونفيات.

كنت متوتّرة تماماً. نهضت إلى باب المطبخ. أوصدته جيّداً، وعدت لأنكمش على كرسي صغير بين المجلى والغسّالة. هذه المرّة لم أهرب إلى الحقول. لم أهرب. حبست حالي داخل الجدران والرّفوف، وبرفقتي هذه اللّغات، والكلمات والأصوات، لا الصّور والفضاء والانفلاشات. كان برفقتي سؤال: وأنت يا نادية رويحة، ما هي لغتك»؟

لم أعرف. وأخافني حتّى الموت أن أكون في عمق أعماقي بلا لغة.

عندما قاربني ناصر في اللّيل انفتح أمامي شبّاك من تلك الشّبابيك. قلت لنفسي،الآن سأعرف لغة هذا الجانب من حياتي ووجداني، المدروز بلغة ناصر.

كان حديث زوجي مع جسدي أبتر وأعشى في ذلك اللّيل. كان خالصاً من التكنولوجيا. عندما أقبلت أطرافه وكتله نحوي، أحسستها أشلاء. وفوق هذا متخمّرة بالوسكي والخطابة. وسرعان ما انصبّ عرقها ونزيزها على جلدي. ثمّ ترنّحت وهوت على السّرير. تركتني وأنا أرتقي سفوح الشّهوة والمشقّة، فانقطعت عن فضاء الشّهيق.

أعطاني انكفاء ناصر فسحة من الحرّيّة. حقّاً إنّ إحباطاً مريراً

تفشّى في سائر أنحائي. بقيت ربع ساعة وأنا أحدّق في عتمة الغرف والسّتائر المدلاّة، لحمي ملتهب وأذناي تسمعان صرير الأصوات في حلق ناصر. بعدها أَوْمَضَ أمام بصيرتي حسّ بالرّاحة والتّلملم. رأيتني مثل مدمنة استطاعت أن تخمد حركة الأفاعي في لحمها دون أن تتناول الأفيون. لم أجد كلمات أصف بها حالتي لنفسي. غير أنّي أبصرت اللّهيب وهو يتهامد ثمّ ينزاح عن الصلصال الصّلب الّذي هو نادية رويحة.

أعتقد أنّني بدأت أبلّ من الأفيون منذ ذلك اللّيل. ربّما جاءت هذه البداية متأخّرة. أو ربّما أن انتباهتي إليها جاءت متأخّرة. كلمات ناصر الكبيرة. كلمات سلمى الموحلة الزنخة، فتحت لي شبّاكاً. منه انطلقت لأبحث عن لغتي. ما هي لغتي أنا؟ أين هي؟ ناصر الكبير، المهيمن، الجبّار... رأيته يترنّح ويهوي. ونادية رويحة، الهاربة عبر صبابات الذّكرى وضباباتها، عادت إلى هذا العتم والسّكون وتأمّلت السّاعة الفوسفوريّة الصّغيرة على المزينة.

هل مرّت أسابيع، أم شهور، بعد ذلك، أم دهور؟ ليس الزّمن مهمّاً هنا. المهمّ هو فقط تلك الأحماض الّتي تراكمت في روحي عبر الزّمن. هذه الأحماض غيّرت كيمياء روحي. لقد تابع ناصر مسيرته وتكنولوجياه وكأنّها خيار الحياة الأخير. اللّمسة الّتي تبثّ النّشوة في اللّحم. العين الّتي تسربل. ورأس الأصبع الّذي يدور على بشرتي ويدور، ولا يدور. المقاربات الّتي تغرق جسدي من نباتات كبريائه وكرامته، وتفتّت تربته. قطرات المطر الّتي تجعل كلّ ترابة من أرضي فماً فاغراً يشهق شبقاً وشهوة. يشهق ترقّباً.

وبعدها تلك اللّحظة الّتي يقرّر ناصر فيها أن يفتح الباب

للسيول. لقد صار لحمي تراباً ممهّداً. وقد آن للبذار أن يرمى فيه.

كلّ هذه المساحات والحقـول الّتي هي جسدي، كـلّ تلك الأغوار والأعـماق والطّبقـات من الصبوات والحـاجـات، تـأتي وأستعجلهـا، أدفعها دفعاً تحت حوافر ناصر الرّامحة. أرض عطشى إلى جوارها تركن شاحنة مياه عملاقة، وتمطر مـطراً من مرشّـات صغيرة نـافرة. خـلال عشر دقـائق تقريبـاً، يبرق ذلـك البرق. ويقصف نـاصر. ثمّ يتوارى الضّـوء والرّعـد داخل الأعـماق الرّخيّـة المستكينة. تنفّ علـيّ قطرات المطر، وأنا امرأة صحراء.

بعد عشر دقائق أخرى أكون قد صرت نادية متفرّجـةً على نـادية. وتعود تلك النباتـات إلى الانبثاق. أحسّ أنّني أريـد أن أبكي. أحسّ أنّني أحتاج إلى هواء. أبحث في الفضاء العاتم عن يد تقترب وتمسح على شعري. أبحث عن مقصّ عملاق لأقطع به الأربطة عن جسمي العاري. أبحث عن شبّاك أفتحه لتدخل منه الرّياح والأمطار والأشعّة وتغسل بشرتي. وأنادي: أين أنت يا نادية رويحة؟

- ٤ -

من بين جميع الخـلائق، جاء أخي رعـد ليزورني. لم يكن قـد كبر يوماً واحداً. رأيته واجتاحني ذعر غـير مفهوم. إذا أصرّ الـرّجال عـلى أن يفعلوا شيئاً فإنّهم يفعلونـه بطريقـة ناصر في اللّيلة الأولى. ورعـد مجنون مطلق، مع تأجيل التّنفيذ. ساعة كاملة وأنا أتحسّب منـه، بينما هو ينتقل معي من الصّالون إلى المطبخ وبالعكس. كلّ دقيقـة مـرّت حملت توقّعاً للعنف. لقـد سلّم عليّ بهـدوء، وعانقني وقبّلني بهـدوء. وسألني ألف سؤال عن حالي بهـدوء، وأخبرني أنّـه تزوّج بهـدوء. . . حتّى صار الهدوء قنبلة موقوتة في ذهني.

أخيـراً تشجّعت وواجهته: «رعـد، أنت تعرف أنّـه أهـلاً وسهـلاً بك. إنّما، لابدّ، زيارتك لها سبب».

- «أبداً والله»! ردّ وهو يغـيّر تصالب رجليـه ويشعل سيجـارة. ثمّ أضاف باضطراب خفيف:

- «من فـترة، شفت أنّي كنت قليل أصـل معك. والـدّم لا يصـير ميّه. جئت لأقول لك: مرحبا».

ليس رعد من النّوع القادر على الكذب. وحقّاً فقد كانت أساريره في عالم مختلف. تأمّلني بحنيّة هادئـة وأسف مستتر. لم يكن منتبهـاً إلى ما في وجهي من تساؤلات، فهو بطبعه يعجز عن قـراءة الوجـوه. قل له شيئاً، وهو يفهمه.

كنّا نقف عند المغسلة، في الممرّ بين المـطبخ والصّـالون. أحسست أنّ بـوسعي الاطمئنان إلى أخي الآن. غـير أنّـه بـاغتني بمـد يـده إلى

ذقني. تجلّدت رعباً. أدارت أصابعه ذقني إلى المرآة. وطلب بعينيه، ربّما لأوّل مرّة في حياته، أن أنظر إلى وجهي.

نظرت إلى وجهي، ثمّ إلى وجهه أستفسره.

ـ «بذمّتك، هذا هو وجه نادية آكلة الشّهد»؟

التفتّ إلى المرآة بسرعة ووجل. تأمّلت وجهي بتفحّص عميق. كان هو وجهي! لكنّ رعد أخذ يقول: «مثل البطيخة صاير وجهك. نفخة وصفرة. شوفي حنكك. شوفي عينيك. وتسريحتك المدوغلة. مثل الغولة صايرة. وجهك منفخ وناشف وما فيه طراوة. وشوفي جسمك. مثل المدحلة...»

صرخت به: «رعد»! وتأمّلت في المرآة للمرّة الثّالثة. لم تكن أيّة كلمة من كلمات رعد الظالمة صحيحة. غير أنّه كان مايزال يقول: «والله عرف ناصر كيف يروّضك. حتّى جسمك عمله كما يريد. ملظلظ ومثل المدحلة».

صرخت برعد غاضبة: «رعد، اسمع! إذا كنتم راسمين أنّي أطلّق ناصر، فالعبوا غيرها»... هتف هو بسرعة: «أنت مجنونة! إن تطلّقي ناصر فأنا أرميك بمخزن رصاص كامل. فضيحة واحدة تكفينا».

صمتّ مبهوتة. وتابع هو: «أنا أردت الاطمئنان عليك، بس. يا ترى استسلمت، أو لأ. بس».

ـ «استسلمت لأيّ شيء»؟

«يعني. للحياة الزوجيّة، مثلاً».

«وزوجتك؟ أما استسلمت للحياة الزّوجيّة، مثلاً»؟

«كلّ النّساء مستسلمات للحياة الزّوجيّة. ليس هذا قصدي».

أقبل الصّغيران، فأسكتنا حضورهما. تأمّلها خالهما بصمت

وفضـول. لكنّ رعد سرعـان ما شقّ طـريقـة إلى قبـولهـما بـه، وراح يلاعبهما كصديق قديم.

جاء ناصر مبكراً يومهـا. كان وجهـه مستطيـراً وعابقـاً بالهيجـان: «من الرّجل الّذي عندك في البيت»؟ كان رعد يلاعب الولدين ويمشي لأجلهـما على أربـع. بوغت الاثنـان. بدا رعـد أكثر تهيؤاً للمنـاسبة. نهض ومـدّ يده. ومـع أنّ ناصر مـدّ يده أيضـاً، إلاّ أنّه تحـرّك وتكلّم كالنائم. وعندما اندفع الاثنـان أحدهمـا نحو الآخـر، أغمضت عينيّ لينزلق من بدني التوتّر المرهق الّذي تكدّس فيه.

بعـد لحظة العنـاق صرت واعية بحـزن قاتم استمـرّ إلى أن سألني نـاصر بعد منتصف اللّيـل: «ماذا يـريد رعـد»؟ كان هـذا السّؤال في المركز من كـلّ تصرّفاتـه خلال النّهـار والعشيّة. رغـم كـلّ الدّمـاثات واللّياقات، لم يَبْدُ عليه أيّ اطمئنان.

قلت: «أنـا مثلك، ظننته جـاء وفي بالـه بال. لكن، اطمئن. رعد يمرّ في حالة تحول. منذ زواجه».

«الواحد يستقر بعد زواجه، لا يتحوّل». قال هو، مصيبـاً هدفـين بجملة واحدة. ثمّ أضاف: «أنا متأكّد أنّهم كانوا يريدون عقد صفقة رابحة من وراء تزويجك».

التفتّ وصحت بناصر: «أنا لا أسمح لك! أنا لست بضاعـة. أنا امرأة واعية بحالها تماماً».

نـظر إليّ بسخريـة متأمّلة. وفيـما كـان يمـدّ يـده إلـى زنـدي قـال متهكّماً: «واضح أنّ حضور رعد خلاّك جريئة عليّ أنا».

لم أردّ ـ لسبب آخـر: أقبـل نـاصر علـيّ طـالبـاً الجنس. انشغلت بمحاولته، واختنقت بها. ذلك لأنّها حملت معها قرفـاً متعارمـاً. قرفت

من الجنس بـذاته، وأيضـاً من أنّ ناصر، وبـلا أيّة كـبرياء، يـطلبه. وكان حينئذ قد تعبّطني بذراعيه.

«ناصر، أنا نعسانة».

«على السّريع. أريد أن لا يؤثّر رعد عليك».

لا أدري إن كـان خيـاري صحيحـاً. لقـد رأيت أنّ خـير وسيلة لغسل القرف هي أن أترك ناصر ليفعل بي ما يشاء، ثمّ ينتهي الأمر. وهكذا كان.

انكبّ عليّ كـالـرخّ. التقـطني وطـوّقني وحصرني. لم يلجـأ إلى التكنـولوجيـا هذه المرّة. ولم أفهم لماذا. بـدا لي مهتمّاً بجسـده فقط. أراحتني أنانيّته. قلت لنفسي إنّه خلال دقـائق سينتهي. غفلت برهـة لا بأس بها عن كلّ حركاته ـ غفلة بالطبع، إحساس بأنّه هناك، مثلما الفستان الّذي يلبسني هناك. ظلّ ذهني منطلقاً إلى رعـد والعاصمـة ـ العاصمة بشكل خاص، تلك الكتلة الجسيمة الهائلة من البشر والبناء والشّـوارع، الّتي لا شيء غـيرهـا يمكن أن يحتـوي الـرّوح والعقـل، ويفتـح مكانـاً للعافيـة: مكانـاً، أجل لأنّني، ونـاصر يمتصّ جسـدي ويعتصره، رأيتني بلا مكان. رأيتني بلا ركن يحتويني، أو فسحـة أليفة لقدميّ آوي إليها. حتّى الحقول والرّوابي الّتي كـانت نجعتي وسلوتي، رأيتها غريبة، أجنبيّة. . .

إلى أن بـدأت أنتبه لنـاصر؛ أو بدأ جسـدي. وأخذت أستجيب. انتبهت، فـذعرت. تـوسّلت لجسدي أن يـظلّ غافيـاً. ورأيتني أزداد يقظة وتوتّراً. مؤكّد أنّني لا أستطيع أن أكون حازمة إلى الحدّ الكـافي. وفي لحظة خاطفـة ظننت أنّ بوسعي الاستجـابة لنـاصر دون أن أرى نفسي بضاعة.

غير أنّ هذا الموقف انهار بالكامل بعد الانتهاء. والقرف الّذي عانيته كإحساسٍ لحظةَ بدأ ناصر يجترّني، صار عندما انزاح عني متجسّداً على شكل قشع وقيح وبصاق. في ذلك اللّيل، ولأوّل مرّة، رأيت زوجي صغيراً، ورأيت شخصي حقيراً: مجرّد امرأة رهنت عقلها بحالتها الشبقيّة.

في اليوم التالي خرجت مع رعد وحسّان وحيّان. صحبتهم عبر الحارات والأزقّة إلى السّوق والشّارع الرّئيسي. كلّ ما رأيته كان جميلاً، بمعنى من المعاني. ولقد أفهمت رعد أنّه غبي تماماً وضلاليّ، لأنّه اشمأزّ ممّا سمّاه القذارة والحيوانيّة، وهما في الحقيقة ليسا سوى العفويّة والفطريّة بعينهما.

شرد رعد قليلاً. ثمّ تقطّع وانبتر. وعندما وصلنا إلى الدّار فقط قال: «تلك رومنسيات قديمة. كانت ستاراً لأنانيات متفجّرة، اختبأنا وراءه، وخبأنا عجزنا عن فهم الواقع».

قلت: «الواقع الّذي هو»؟

قال: «الواقع الّذي هو أنّنا كلّنا ضحايا لنظام الملكيّة الفرديّة. ضحايا بمعنى نفسي. قصدي، نحن، إحساسنا بالملكيّة لا يقل جبروتاً عن إحساس أيّ رأسمالي قذر حقير».

قلت: «سيكون أبو حاتم سعيداً بسماع آرائك».

عدت وأنا أسبح في تيّارات دافئة من الفرح والنّشاط. جهّزت بسرعة قياسيّة مائدة لثمانية أشخاص أحبّ رعد رؤيتهم. وجلسنا قبيل المغيب نتمارح ونتبادل الذكريات. «إلّا هلال مطر»! هتف ناصر، «هذا لا يمكن أن أدعوه»! كان ناصر ودوداً إلى درجة مفرحة. وقد شجّعتني بشاشته على أن أغادر جلستنا الصّغيرة أربع مرّات، وأدخل

غرفة النّوم، فأغلق بـابها ورائي. في المـرّة الأولى وقفت وسط الغرفـة محتارة من السّبب الّذي جعلني أجيء إليها. ثمّ حانت منّي التفاتة إلى المرآة.

أربع مرّات جئت لكي أنظر إلى وجهي في المرآة. رأيت نمشاً يغزو وجنتي، لم أره من قبـل. ورأيت عينين ظليلتـين، وحنكـين قـويّـين، وعنقاً سميناً وإن يكن أملس. ذلـك ما تـأكّدت منـه في المرّة الثّـالثة. وفي المرّة الرّابعة رأيت الحزن والألم.

هجم أبـو حاتم بكـرشه الضّخمة، وأبو واسع بشهيّتـه الواسعـة، ودخلا البيت باحثين عن رعد ليعـانقاه. ولكي يستمـرّ ذلك الفـرح، أخذ الجميع ينقلون الصّحون من المطبخ إلى الصّالون.

كـانت سهرة استثنـائيّة وخـارقة. أمضيت ثـلاثة أربـاع وقتي بـين المطبخ والصّـالون، لأنّ هنـاك ثمانيـة أشخاص آخـرين صرت مجبورة بإطعامهم. غـير أنّي لم أترك لحـظة فرح واحـدة تهرب منّي. كنت قـد نجحت في الاطمئنـان إلى جمال وجهي وشكـلي بعد عشرين تـطليعـة والتفاتة أمـام المرآة. وفي جـوانب عديـدة من نفسي، انفتحت نوافـذ وأبواب لمجيء رعد، وهبّت منها أشواق وأفراح حبيسة قديمة. وعندما صاح أبو شادي شاتماً الإيديولوجيّات كلّها، كنت قـد صرت مستعدّة للدبكة مع رعد وأبي حاتم.

انهمك الجميع في شرح «الفضيحـة الحاتميّـة» لرعـد، وهي أنّ أبا حاتم خرج من السّرب وانضم إلى معسكـر فرويـد الرّجعيّ. أمكنني أن أدرك، رغم انشغالي بالمطبخ والـطّعام، أنّ أصـواتهم قد تكـاتفت عليه بشكل فـظيع فمنعـوه من أن يُسمعهم جملة مفيدة. وقـد اضطر المسكين أخيراً إلى أن يكتفي بمستمع واحد لـه، هو أنـا، ويقول لي:

«أنا لم أشترِ كلمة واحدة من فرويد! أنا أتكلّم عن يونغ، والذّات الجمعيّة»!

التقط أبو واسع خيوط الحديث فأعلن أنّ الماركسيّة بتجلّياتها الرّاهنة قد انهارت، وأنّ العالم سيكون رهينة «لديمقراطيّة» المركز الإمبريالي لمدّة مئة سنة قادمة.

بعد حوالي ربع ساعة، بعد تطليعة اطمئنانيّة إلى المرآة، تمكّنت من خمس دقائق أخرى من المشاركة، وصرخت بهم جميعاً. قلت لهم يجب أن يستمعوا إلى أبي حاتم، وإلاّ ازداد سمنة لضخامة ما عنده من أفكار وتصويبات. وصاح أبو شادي بدعوة للرقص.

أخلى الجميع لنا مكاناً في ذلك الحيّز الضيّق الّذي لا مكان ضيّقاً فيه. الإنسان هو الإنسان. إذا لملم نفسه بحبّ الحياة والنّاس، اتّسع كالحياة والنّاس. والمكان الّذي انفتح لرعد ولي كي ندبك معاً، مثل أيّام المخيّم، لا يتّسع لخمسة صيصان سعيدة. ومع ذلك رقصنا. وصفّقوا لنا. وغنّوا وهتفوا. وجه الشّريط الأوّل انتهى، وفوراً بدأت مسجّلة ثانية بشريط ثان. وكان رعد مارداً يهزّ البناية بخبطة قدمه.

إنّما شكراً لله أنّ أبا حاتم دخل معنا في «الحلبة». كنت قد بدأت ألهث. ولم أشأ أن يراني رعد فتقول لي عيناه: «مثل المدحلة»! وراحت كرش أبي حاتم ترتطم برعد ذات اليمين. وبي ذات اليسار. ثمّ دخل أبو شادي وأبو حليم، فانعقدت الأذرع وامتدّت إلى الأكتاف. . .

تسنّى لي الانسحاب غير الملحوظ إلى المطبخ. هناك وضعت راحتيّ على الحائط، وأسندت جبيني بين ذراعيّ. كان صدري يعلو ويهبط كالمنفاخ. لم أنظر إلى المرآة. لم أنظر إلى شيء. أحسست بصدري موشكاً على الانفجار، وبجسمي موشكاً على التفتّت. وبغتة انحدرت

دموعي على خديّ. ثمّ تهاويت على الكرسي الصّغير. وقال لي يقين ثقيل إنّه قد آن أوان الاعتراف.

دخل رعد وأبطل نشيجاً أوشكت أن أنفجر به. شهقت. لم ينتبه إلى شيء. وعيناه لم تكونا تريان عيني ووجهي. وضع إصبعيه على شفتي: «لا تقولي شيئاً. اطعميني بيضتين. . لا، أربع بيضات مقليات». وبغمضة عين اختطفني عن الكرسي بذراعيه، ودار بي دورتين، ثمّ ترنّح وأنزلني.

تناولت مقلاة وقطعة من الزبدة. انهال هو على الكرسي وأسند رأسه إلى الجدار. هتف مغمض العينين، نصف لاهث: «بعد خمسة وعشرين كتاباً من دار النّشر الّتي لك، توقّعت أن يكون كتاب واحد على الأقلّ من تأليفك. لكنّي بدلاً من هذا أراك تبكين».

غمغمت: «أوّلاً، دار النّشر ليست لي أنا».

قال: «لا يهمّ. أنا أحتقر الملكيّة من يوم فتحت عيني على الدّنيا. وثانياً»؟

نبرت لأتفادى موضوع البكاء: «أنت سكران طينة، بدليل تفكيرك بأنّي كاتبة».

هقّ رعد: «كنت أيّام المعسكر مؤمناً بك مثلما كنت مؤمناً بالبارودة. أنت لست مثلنا. نحن كلّنا عبيد من الدّاخل. أنت في أعماقك، حرّة. أظن، لهذا السّبب عارضت زواجك. استضيعتك برجل رآك مكسباً».

تناولت البيضات من البرّاد، وقلت: «بصراحة، أنا لا أعرف أيّ رعد هذا الّذي يكلّمني. أنت تغيّرت كثيراً».

هقّ ثانية. رفع إصبعه نحوي: «أنت الّتي تغيّرت لا أنا. أنت

طمرت نادية، وصرت امرأة. زوجة. أمّ أولاد. أنا دائماً أنا. رعد، الّذي هو فرد أحياناً. وجمع أحياناً. أنا اليوم رعد الفرد. هأ! أمّا أنت: أنت انطفأت تماماً. لست أيّ شيء خاصّ. على الإطلاق. أنت مرثيّة».

قلت باشمئزاز وترفّع: «وأنت ماذا أنت»؟

وردّ بعفويّة مفجعة: «أنا ضحيّة. أنا في هذه اللّحظة.. غير أنا في غير لحظة.. أنا في هذه اللّحظة.. أعلن أمامك.. وربّي شاهد.. على ما أقول.. أعلن أن التّقدّميّة ليست بالتمذهب وإنّما بالحرّيّة».

وبعدئذ خرج على غفلة منّي.

هيّأت البيض المقلي وبحثت عنه. وجدته نائماً على البساط بين سريريْ حسّان وحيّان.

أمن عالم للغيب جاء رعد وقرع جمجمتي؟ أهو حقّاً من دفق تلك الكلمات أم أنا؟ عندما أفقت في الضّحى التّالي لم أجده في غرفة الأولاد. ولا في البيت كلّه. عندها فقط تأكّد غيابه الموحش، واتّخذ جميع ماحدث وقيل في اللّيل مواقع وأمكنة جديدة في خاطري.

في الصّدر من تلك الأمكنة، نفرت صورة سرير نومنا، ناصر وأنا، الغارق في العتم والصّمت، الغارق في الغربة. أدهشني أنّ ناصر لم يتحرّش بي في ليلة الفرح والنّشوة الّتي فاتت. كان هامداً وراء تخم عال ارتفع بيننا. وكنت ممتنّة لذلك. وبدا لي السّرير مجمرة ضخمة تنثّ غمائم من أبخرة الحشيش والأفيون.

أخذت الغمائم تدخل عبر مسام بدني وتستقرّ في روحي. حالة ثالثة ليست خمود الواقع ولا أحلام اليقظة. ذلك السّديم. عرفت أنّ

عاصفة سوف تهبّ بيني وبين ناصر، ولا شيء سيمكنه وقف هبوبها. كان البيت فوضى كاملة. في كلّ مكان منه انتشرت أعقاب السّجائر ونثرات الطّعام كديدان مسحوقة. في المطبخ، علت تلال الصّحون والأواني بانتظار الجلي. أكثر من مرّة هممت بالقيام إلى واجباتي. فكرة مروعة ثابتة رفعتني عن الأريكة ودفعتني أن أبدأ: «إذا أسلمت نفسي للسديم هذه المرّة، سأنهار». غير أنّني لم أقم.

تركت البيت كما هو. وما عدا حسّان وحيّان، لم أمدد يدي إلى أيّ شغل. جاء ناصر في الثّانية، وبنظرة خاطفة استوعب كلّ شيء. لم يصدر عنه أيّ ردّ فعل. هو أيضاً امتنع. حتّى ملاعبة الولدين، امتنع عنها. ومرّ النّهار، ومرّ المساء. في اللّيل، وظهري مُدار لناصر، أحسست أنّه يريد كتابة عقد جديد للملكيّة. كنت واثقة أنّني سأقاومه هذه المرّة. لا أدري إن كنت سأنجح؛ لأنّي نجحت بلا مقاومة: أدرك ناصر على نحوٍ ما أنّني بعيدة عنه، فأمسك.

كنت واعية بأنّ مجيء رعد قد بلبلني. لم أخف من البلبلة. كنت واعية بحاجتي إليه، إلى أخي، إلى شخص اعتادت حياتي أن تجده جزءاً طبيعيّاً منها. مؤكّد أنّي لم أستطع ربط شيء، ولا أن أتعمّد شيئاً. أنا فقط خرجت من البيت إلى بيت أبي حاتم في الحارة التالية، وطبخت له طبختين تكفيانه نصف شهر. كان سعيداً كطفل، ومرتبكاً بشكل أخرق. وطفق يحدّثني أحاديث عريضة عن علاقات الرّجل والمرأة، وعن «اللاّشعور الجمعي» الّذي يتحكّم فينا أكثر ممّا يتحكّم الدّولار. . .

وقد عدت إلى بيتي وفي داخلي فيض من الرّاحة، ليس فقط لأنّي عملت معروفاً مع صديق، بل لشعور رغيد بالمؤاخاة تغلغل في

جـوارحي. لقد طبخت لأبي حـاتم، لكنّ خيالي كـان متعبّقاً بـرعد. وفي بـاحة الـدّار وجدت حسّـان وحيّـان يلعبـان كـالعـادة مـع أولاد الجيران. لأوّل مرّة، رحت ألعب معهم.

صدفة غير معقولة هي الّتي جعلت ناصر يدخل مبكراً ذلك المساء بينما يداي تمسكـان بشهادتي الجـامعيّة في العـلاقات العـامّة. لم أدرِ لِمَ خطر ببالي أن أنبشها من أعماق خزانتي وأتفرّج عليهـا. بالـطبع كنت ملكـة من ملكات العـلاقة العـامّة، ولكنْ داخـل بيتي فقط. لـذلـك تـأمّلت شهادتي مثـل من تتأمّـل ولداً كسيحاً يفرض نـامـوس الحيـاة استمرار رعايته.

انـتزع نـاصر الشّهـادة من يـدي. رمـاهـا إلى الخلف. «اقعــدي لنتفاهم»، قال لي. لم يكن في صوته ذرّة واحدة من العنف الّذي هيّج يده. جلس على الأريكة المقابلة. وكان هذا كافياً لكي يشلّني.

لم أجلس. نبر هو: «اقعدي، قلت لك».

كنت أحـاول استيعـاب مـا يحـدث. بقيت جـاهلة إلاّ بـالعنف المستـتر. رأيتني أستجيب استجابـة لاإراديّة. قلت: «هـات الشّهـادة أوّلاً، أعطني إيّاها».

نهض. مشى إلى الشّهـادة والتقطهـا. من هنـاك وإلى حيث وقفت أنا، كانت يداه قد مزّقتاها إرباً إرباً. وصل، ومدّها إليّ: «تفضّـلي يا مدام»، ورماها على وجهي.

أنـا امرأة لا تحبّ العنف، ولا تحسنـه. كنت مذهـولة تمـاماً. لكن الّذي أبقاني على هدوئي لم يكن الـذهول. لقـد شحنني ناصر بالرّعب. للرّجل رعب خاصّ في قلب المرأة. وكان أبو حاتم قد قال لي إنّ عمر هذا الرّعب سبعة آلاف سنة. فمن يمكنها أن تقاوم كلّ هذا التّاريخ؟

لم أجلس. عقد ناصر ذراعيه تحت صدره وقال: «ماذا عمل أخوك بعقلك؟ جاء ثماني وأربعين ساعة، وراح، وتركك مخلوقة ثانية».

من خلف كلماتـه جاءني حسّ مـوقت بالأمـان. كان حجم العنف فيها أقلّ وحشيّة ممّا خشيت. عندها فقط جرؤت وأحسست بالغضب حزناً على شهادتي. سألته بهدوء: «لماذا مزّقت شهادتي»؟

قال: «حتّى لا يخطر لك تمزيق حياتنا».

قلت: «أنت مهلوس وعقلك ضارب».

قـال: «صحيح. وإذا أصررت عـلى التّحدّي، فيمكن أن أقـترف جريمة. أنا لن أسمح! فاهمة؟ لن أسمـح لا لرعـد ولا لغير رعـد ولا لك أن تهدموا حياتي وحياة أطفالي».

ـ «لا أحـد يقـدر عـلى تهـديم حيـاتـك إلاّ أنت. الآن، من أين أحصـل على نسخـة شهادة؟ في الجـامعة لا يعـطون إلاّ النّسخـة الّتي مزّقتها».

ـ «لا تغيّري الموضوع»! كان وجهـه يفحّ شـرّاً. صمتنا قليـلاً ـ هو انتظاراً، وأنا أحاول أن أتذكّر.

قلت: «أيّ موضوع»؟

غـرفت أصـابعـه زنـدي وغـاصت فيـه. صرخت ألمـاً. «اسمعي نـاديـة. اقصري الشّر وفهّميني. طـوال سنتـين وأنت مثـل السّمن والعسل. جاء أخوك يومين.. وإذا بك مثل الرّجال. رأس يابس.. من قبـل، وصلت إلى حدّ تحـطيم زواجنا في العـاصمـة. والآن... مـاذا قال لـك أخوك؟ هـاه! لماذا خـرجت فجأة عن انسجـامك معي ورضاك بحياتنا»؟

كنت أتـأوه من وجع زنـدي. حاولت تخليصـه من قبضـة نـاصر،

فدفعني ورماني على الأريكة. وقف أمامي مفتوح السّاقين وإبهامه تشير إليّ من قبضة مشدودة: «هذا التّحدّي! أريد أن أفهم لماذا هذا التّحدّي»؟

لن أقول إنّي كنت جاهلة بما وراء تخريفات ناصر. لقد سكتُّ لأنّي خفت من أجوبتي عن أسئلته. كنت في ذلك اليوم الخامس واعية بأنّ ما قاله رعد صحيح، وبأنّي على وشك المضيّ في منعطف حياتيٍّ مخيف. أحسست أنّ زمناً سحيقاً مهيمناً يوشك أن ينقضي. وطفحت رعباً.

كان ناصر يقول: «... وأنت شطبت على نظام حياتنا كلّه. نسفته. ستة عشر مدعواً كان عندك... تركتهم بلا أكل ولا شرب... سوّدت وجهي... لتتفضيّ للنقاش والعلاك... وتردّي على زيد وعبيد... كأنّك الرّجل الوحيد... ونحن النّساء»..!

عقدت ذراعي على حجري وسألته: «ماذا بعد»؟

«أريد القَبْل بالأوّل»، صاح وإبهامه الممدودة تتابع تهديد كلماته. «ماذا دهى بعقلك حتّى قضيت أربع ساعات في شقّة أبو حاتم»!

لا أذكر ماذا كانت كلمات ناصر التّالية. أذكر أنّه انهال عليّ باتهامات الزّنا والخيانة مع أبي حاتم، وتقدّم فأطبق بيديه على زنديّ مثل كلّابتين يخضّهما تيّار كهربائي عنيف.

صرخت ألماً. وتغرغر حلقي بأصوات الحشرجة. وتخلخلت أضلاعي. تركني. سحب كرسيّاً وجلس عليه مقابلي. «اعترفي»! صرخ بوجهي. «أيّ نوع من الموطوءات كنت»؟ صاح. «طبختين طبخت له لينام معك»؟

«ناصر»! صحت من عمق رئتي. لكنّه استمرّ في فحشاء كلامه.

وصرخت: «ها أنت تبين على حقيقتك. كلّ هذه المدّة وأنت تمثّل عليّ. تخبّئ وجهك البشع عني».

أخبّئه، ما؟ أنا أخبّئه؟ أنا وجهي لم يختبئ! وجهك أنت الّذي اختبأ». . . وعاد يغترف زندي بقبضته ويعتصره.

أذكر أنّه قال لي إنّي مثل ذيل الكلب، وضعوه في القالب أربعين شهراً، ولمّا أخرجوه عاد يلولح مثلما كان من قبل. سنتين وأنا رمز ومثال في الضّاحية كلّها. فجأة! زيارة قصيرة من معتوه ترسلني في زيارة فجور، زيارة عهر، إلى بيت أعزّ أصدقاء زوجي.

وضعت جبيني على راحتي وأطرقت. لم أعد أريد رؤيته بالمرّة. غثيت وجاشت معدتي. أغمضت عيني لأنّي لا قدرة لي على طرده. وكان مايزال يصيح أنّني أنا الّتي تغيّرت، وأنا الّتي تحربنت؛ وأنّه الرّجل الّذي خُدع بي، واعتقد أنّ حبّي وأمومتي أقوى من أنانيّتي. «هل هناك أمّ ترمي ولديها للجيران، غيرك أنت»؟

لا أذكر متى انصرف من جانبي. لكنّه انصرف. تفقدّته في البيت فلم أجده. جمعت مزق شهادتي في كيس، وأنا أبكي عليها، وخبّأتها. هبطت إلى أرض الدّار وعدت بحسّان وحيّان. وإلى أن أكلا وناما، بقيت منشغلة الذهن كما لو أنّي نعامة دفنت رأسها في الرّمال.

ثمّ جاء صمت المكان وصمت اللّيل. دلفت إلى المطبخ. تلك كانت عادتي عندما تهجم عليّ فلول الصّمت والوحدة. هذه المرّة وقفت أمام المرآة في الممرّ. ونظرت. رعد معه حقّ. ذلك الوجه لم يكن وجهي، ليس فقط أنّ الشّكل والحجم تغيّرا. إنّه وجه خانع، ذليل. وجه اعتاد على انعدم التّعابير منه. على أن لا يوحي بأيّ

شيء. على أن يجد غبطة في البلادة والرّتابة والتّفاهة. وجه جبلتْه روائح المطبخ والغسيل ويد ناصر.

عدت إلى الأريكة ورميت جثّتي عليها. انتصف اللّيل وأنا مرميّة. ثمّ دخل ناصر. علمت من سيماء وجهه وحركاته أنّ جنونه قد تطامن. كان في حالة يمتزج فيها الاستهتار والازدراء. دخل غرفة النّوم وعاد حاملاً بيجامته. رمى حذاءه كيفما اتّفق. غيّر ملابسه.

مرّة أخرى رأيت ناصر صغيراً. لقد أسكتني كونه كبيراً أربع سنوات. بصورة خاصّة، رأيته كبيراً حتّى ليستحيل عليه الوقوع في الخطأ. لم أدر لم سألته: «ناصر، ألست نادماً على كلامك»؟

ردّ هو بهدوء: «أنت رحت إلى شقّته. أربع ساعات بقيت هناك».

ـ «لكن أنت تعرف، أنا يستحيل أن أنام معه، أو مع غيره».

ـ «روحتك، كأنّك نمت معه. تمرّدك عليّ، كأنّك نمت معه. . .»

ـ «أنت ماذا دهاك؟ أنا إنسانة، ولي حرّيّتي»!

ـ «طبعاً. وبسبب حرّيّتك، يمكن أن تقرّري ذات يوم النّوم مع أحد الرّجال».

رأيته صغيراً مرّة أخرى. ورأيت نفسي صغيرة كذلك. وكان هذا أشقّ على روحي من الجريمة والدّم. أنا لا أعرف على أيّ أساس يتصوّر الرّجال هذه الأمور. كلّ ما يقولونه هو: خيانة زوجيّة! يعني أنّ شخصاً هو المرأة قد خان شخصاً آخر هو الرّجل. لا أحد يتكلّم عن خيانة ذلك الشّخص لنفسه، لصدقه، لمشاعره، لكرامته: كأنّ وفاء المرأة هو لزوجها أوّلاً وأخيراً، وليس لأنوثتها وفرديّتها وكرامتها. بينما وفاء الرّجل يظلّ لذكورته، لا لزوجته.

ـ «عندما أنام مع غيرك، يكون هذا لأنّك انتهيت بالنّسبة لي. وإذا

انتهيت بالنّسبة لي، أكون حرّة في ما أفعل».

- «أنتِ تلعبين بالنّار، نادية. نحن بيننا عقد ملكيّة. لا شيء غير الذبح يفكّك منه».

لم أردّ عليه. رأيته صغيراً لأنّه رضي أن يتصوّر نفسه في موقع الرّجل الّذي تخونه زوجته. إذا كان واحد مثل أبي حاتم يمكن أن يغري زوجة ناصر بليلة جنس، فأيّ شيء تافه هو ناصر نفسه؟!

كنت في حالة عزوف تامّ عن الحديث، رغم الهدوء وضبط النّفس. رأيت المطبخ مكاناً أفضل. مشيت إلى هناك. خفت أن يتبعني. لكنّه لم يفعل. أعددت لنفسي عصير ليمون. وجلست أشربه على مهل.

عدت إلى الصّالون مرتابة من السّكون التامّ الّذي أطبق على البيت. رأيت ملابس ناصر وحذاءه مرميّة كيفما اتّفق. جمعت الملابس بيد، وتناولت الحذاء بيد. دخلت غرفة النّوم. وفي الباب وقفت.

كان ناصر جالساً في السّرير عاري الصّدر، وظهره مسنود إلى المخدة. نظرت إليه بنصف دهشة ونصف قرف. قال: «تأخّرتِ». لم أردّ عليه. دخلت. رميت حذاءه على الأرض وملابسه على المزينة.

خرجت لأنام في الصّالون. صاح هو: «إلى أين»؟ لم أدر بماذا أجيبه قلت «لأطفئَ الضّوء». عدت إلى المطبخ، ووقفت هناك بعض الوقت.

ساءلت نفسي ماذا أفعل الآن. اشرأب بي خوفي العريق منه. كيف لامرأة أن ترفض تقديم الجنس لزوجها، وهي تعلم مقدار عنف

الرّجال حيال شهوتهم. . وهي تعلم أيضاً أنّ رجلها يمكن أن يحصل على بغيته من مكان آخر؟

رأيت مستحيلاً ذلك الوضع الّذي وجدت نفسي فيه. كيف وصلت إلى هذا الدرك دون أن أدري؟ أنا عاجزة عن قول «لا» لرغبة ناصر في الجنس، وعاجزة عن الاستمرار في الحياة إذا لبيّتها.

عدت إلى غرفة النّوم وأنا مقهورة وحائرة. أطفأت الضّوء. كان أملي المفجوع أن يمتنع عنّي، بعد أن شتمني في شرفي وأنوثتي. . . أن توقفه كرامته وشرفه عن سحق كرامتي وشرفي.

تمدّدت كالمعتاد، وأدرت له ظهري. كان مايزال جالساً في السّرير. أحسسته يراقبني، ويتعمّد عدم الحركة ليستمتع بمجيئي إلى السّرير.

مدّ يده. ورأيتني أتخشّب. هو فعلاً يريدني. يريد توقيعي على عقده من جديد.

أدرت رأسي نحوه، وتمتمت بهدوء: «أنا لا رغبة عندي اليوم»، وعدت إلى اضطجاعتي.

مدّ يده إلى كتفي وأمالني نحوه. «ما عليه»، همس فمه القريب من عنقي، «سأكتب العقد لوحدي».

كرّرت قولي إنّني غير راغبة، وكرّر قوله إنّه يعفيني من المشاركة: «أنت نامي على ظهرك، وبس».

عطّلتني حيرتي ولم أدر ماذا أفعل. كنت أحسّ بجرح في أنوثتي. رغم حالات ماضية، وربّما بسببها، تلبّسني رفض رهيب في سائر أنحاء جسدي. لم أشأ أن أصارحه بالّذي بي. كيف أجرؤ!

استقطرت لغتي، وجمعت بعض الكلمات الهادئة لأطلب منه أن يتركني وشأني. . .

أحسست بـذراعه داخـل ردائي. تخشَّبت من جـديـد. وعـطّلتني حيرتي فلم أدر كيف أتصرّف. كثيراً ما حدث هذا من قبل. لكنّـه لم يستسلم يوماً لتمنّعي. كان دائماً ينزع عني ملابسي.

هـذه المرّة أيضـاً لم تُجدني مقـاومتي. وراحت يداه تـزدادان شراسة وتـوتّراً كلّما ازددت تمنّعـاً. ولحظة وصـل إلى القطعـة الأخيرة، كـانت الشّراسـة واللّهاث قـد انتابـاني أنا الأخـرى. شدّ؛ وشـددت. شدّ؛ وأقفلت سـاقي. قلت لنفسي لن أستسلم إلاّ بـالمـوت. أخيـراً امَّـزَقَ اللّبـاس عن الجهـه العليـا. لم ننتبـه لشيء. أمسينـا كِـلانـا فـي قبضـة الوحشيّة والتّحدّي. لم نرعوِ إلاّ عندمـا حزّ طـرف اللّباس الآخـر على لحمي فقطّعه وانقطع.

شهقت ألماً وخوفاً. أدرت جسدي ورأيت الجرح. كان خطّ خشن يمتـلئ بالـدّم على طـول ثـلاثـة سنتمـترات من وركي، ويثخن. «كم لحمك طريّ»! صـاح ناصر متـذمّراً معجبـاً. ووثب إلى الصيدليّـة في الحـمّام، بينما رحت أعـاين الجرح. سقـطت قـطرات عـلى السّريـر. ونبعت بدلاً منها قـطرات جديـدة. تكاثفت القـطرات. وانزلق الـدّم نحو ظاهر فخذي.

وفجأة ناصر. مسح الجرح بقطنة معقّمة ووضع عليه أربع لواصق طبّيّة بالعرض. هكذا، خلال ثوان. وابتسم ابتسامة ظافرة: «انتهت المشكلة». واحتواني بين ساعديه وصدره.

هـدأت ريثما ينفـكّ عني. ضمّني بقـوّة أكـبر. دفعني إلى الخلف، وطـرحني على ظهـري. انتفضت مبتعدة عنـه. تشاغلت بـالنّـظر إلى

الجرح، ولم أجرؤ على مغادرة السّرير. كانت قطرات جديدة قد نفرت من بين اللّواصق. دمدمت بسخط: «النّزف لا يتوقّف لمجرّد أنّك أخفيت الجرح»! مدّ أصابعه ومسح الدّم. فرك راحتيه بقوّة. التفت وارتمى عليّ.

«ناصر! ستقتلني إذا أجبرتني».

رماني على ظهري: «أنت لازم لك تكرار اللّيلة الأولى».

لا أدري هل هناك فائدة في أن أصف ما حدث بعدئذ. أو هل يمكنني وصفه.

خلاصة القول: اغتصبني ناصر. صحيح هو معتاد على نيل مبتغاه حتّى ولو كان جسدي مطفأً. لكنّني ليلتها رأيتني في ذلك المستنقع، وجثّة الضّبع هاجمة عليّ. وكنت أفضّل الموت على الاستسلام.

بعد نصف ساعة من العراك، وليّ الأطراف، وتثبيت الجسم... استطاع أن يفتح ساقي. سقطت اللّواصق بالطبع. ثمّ بدأ محاولة اقتحامي. كنت مصمّمة حتّى الموت على منعه. «كيف تنام مع زوجة تخونك»؟ «أنت امرأتي. ملكي». شددت حوضي دونه، فامتنع عليه. «سأنالك، يعني سأنالك». كانت يداه تشدّ ظهري وتشدّ حوضي، ومخلبه يشحذني.

سمعت داخلي يصرخ قبل أن أسمع حلقي يصرخ. وقد صرخ من المكان الّذي اخترقه ناصر بمعونة إصبعيه.

لا أذكر ماذا حدث بعدئذ. إذا كانت هناك حالة من غياب الوعي دون الإغماء، فتلك كانت حالتي. لأنّني أذكر تماماً استمراري العنيف الهائج في مقاومته، واستمراره الوحشيّ البهيميّ في القضاء على رفض جسدي. ذلك الصّراع استمرّ دهراً. قوّة الغضب هي الّتي أبقتني

على قيد الوعي. وفي لحظات خاطفة كنت أحسّ بناصر داخلي رخواً مترهّلاً. ولكنّه مع ذلك لم يخرج. أطبق عليّ وكلّبني. وانتظر عودة فحولته. واستمرّ. واستمرّ.

أفقت في الضّحى التّالي ورأيت جاراتي الثّلاث حولي. عادت إليّ الذاكرة ببطء. غير أنّها كانت ذاكرة عمياء. حاولت أن أتحرّك، وعلمت أنّي مشلولة. نهزة واحدة خفيفة من جذعي حركّت فيه، وفي حوضي بالذّات، عشرة آلاف مخلب، وأطلقتها كالمحاريث في لحمي.

سألتني أمّ عبد الرحمن بنبرة: «مالك يا أمّ حسّان، كفى الله الشّر»؟

نظرت إليها بعينين فارغتين. ما لي فعلاً؟ حاولت الحركة ثانية، فاندفعت المخالب في بدني. رأيت أعينهنّ تمخلبني كذلك. «أين حسّان وحيّان»؟ سألت.

قالت أمّ فهيم بغموض: «أبوهم تركهم عندنا وراح. أيّ شيء جرى لك يا ست نادية»؟

قالت أمّ حليم: «لما صارت الضّحوة، وما سمعنا لك أيّ حسّ، قلنا ما لها».

كانت أشباح وخيالات تعبر في عتمة ذاكرتي. وامتلكني انقباض موحش خشيت انكشافه. حاولت التحرّك مرّة ثالثة، وعجزت. قلت لها بلأي: «تعرفين شغلات النّسوان يا أمّ حليم. يا ريت، ومع عدم المؤاخذة، لو أبقى لحالي ربع ساعة. البيت بيتكن. اعملوا لنا قهوة، كلّنا. لنشربها في الصّالون».

«سلامتك ألف سلامة»، قلن وهنّ ينهضن.

بعد خروجهنّ، جرجرت جسمي إلى الخلف. اتكأت على ظهر

السّريــر. رفعت جـذعي بمشقّــة. كـان داخـلي أخـدوداً من النّــار والشّهب. ولكنْ كـان يجب أن أقـوم. مـا الفـائــدة من مجيء هؤلاء النّسـاء الطيّبـات؟ ليست أيّة واحـدة منهنّ صديقـة لي بمعنى الكلمة. ليس في الضّاحية كلّهـا صديقـة لي، ولا صديق، لا في العـاصمة ولا في أيّ مكان.

أوقفني الألم اليابس عن الاسترسـال في خواطـري الحزينـة. رفعت اللّحاف عني، وهممت بالانزلاق عن السّرير. رأيت الشّرشف. كـان وجهاً عجوزاً متكرمشاً. لم تكن عليه دماء غزيرة. فقط ثلاث أو أربع رقـع. لكن كلّ مـا عدا الـدّم كـان هنـاك. أجـل، إنّها اللّيلة الأولى للمرّة الثّانية.

تجرجرت إلى مزينتـي ونظرت في المـرآة. رأيت الغولـة الّتي حكى عنها رعد. شعر أسود له شكل اللّباد. عينان غائرتان. وجه موحش. حنكـان كلّ أسنـانها وارمـة. رأيت امـرأة لا أعـرفهـا. عبثـاً ضربت شعري بالمشّاطة. وفي الحـمّام، كرهت أن أرفـع ردائي عن جسدي. كرهت أن أرى اللّحم الّذي أذلّني، الّذي يذلّني. وعندما نـظرت إلى عربي كنت مروّعة تماماً. لطمني القـرف والكراهيـة. من الّذي يحكم نادية رويحة؟

رأيت أمّ حليم وحدها في الصّالون. ورأيت الصّالون مـرتّباً وشبـه نـظيف. مغلاة القهـوة على الـطّاولة، والبخـار يتصاعـد منها. حيّيت جـــارتي، وتســاءلت عن أمّ عبــد الــرّحمن وأمّ فهيم. نهضـت هي واحتضنتني كـأخت حنون. لفّت ذراعهـا على ظهـري، وأعـانتني حتى وصلتُ إلى الأريكـة. كنّا صـامتتـين. أجلستني وتمتمت: «الله يعـين المرأة على حياتها مع الرّجل».

جفلت في داخلي. هذا التّعاطف هو لامرأة عرفت سرّي. لكأنّها رفعت اللّحاف عن السّرير وشاهدت كلّ شيء ثمّ غطّتني قبل أن توقظني.

انتصبت أمّ حليم على غير توقُّع، واعتذرت بضرورة الذّهاب: «إذا أردتِ، تجيء واحدة منّا وتطبخ لك يا أمّ حسّان».

كيف عرفن أنّني في أزمة؟ إلى ذلك الحدّ بدوت منهارة؟ واضح أنّ صورتي تكرمشت في أذهانهنّ. واضح أنّي هويت من حالق، من المكان العليّ الّذي وضعنني فيه. لقد غدوت مثلهنّ، امرأة يمزّق زوجها جسدها ويطؤها.

الصّمت الّذي أعقب خروجها لفلفتني داخله أصوات مبهمة وصلت من بعيد. غمرت وجهي براحتي وجعلت أبكي. بكيت بلا حراك. لم يكن لديّ من القوّة إلّا ما يكفي لإرسال الدّمع.

تحسّس وجهي من الدّمع. رفعت يدي عنه وبقيت مطرقة. أرجعت ظهري إلى الأريكة، وأغمضت عيني.

أفقت بعد الظهر لأرى ناصر أمامي. لم تدم يقظتي إلّا الوقت الّذي حملني فيه إلى السّرير. بعدها فقدت وعيي.

أفقت في المساء. أحسست أنّ جسدي قد ترمّم قليلاً، خلال ثوانٍ كان ناصر وحسّان وحيّان حولي. تسلّق ولداي السّرير وانحشرا عند إبطي. أغمضت عيني، وابتسمت، وشددتهما إليّ. وخرج ناصر، ليعود بعد ثوانٍ حاملاً صينيّة من الطّعام والعصائر. كان وجهه مشرقاً، وجسمه نشطاً وحيويّاً. بل كان هناك فرح، رغد، وما هو أكثر: شعور هنيء.

كنت خائرة من الجوع. أكلت وأطعمت ولديّ معي. وشربنا عصيراً كثيراً. لم تمض ساعة إلاّ وهما غافيان على خاصرتي.

صحّ ما توقعته. بعد نوم الولدين سألني ناصر: «ها. أظن أنّك أحسن الآن». كنت أحسّني مرضوضة ومعجونة. أشرت بيدي أنّني مازلت فاقدة للحيل. «أنا أقصد نفسيّاً، نفسيّاً. أنت حتماً أحسن الآن، بعد العقد الجديد الّذي كتبناه البارحة».

هززت رأسي بالرّفض. لم أردّ. ولم أنظر إليه.

«شوفي نادية»، جمجم هو، «سنتين وأنا أحسب لكلّ حركة حسابها. لكلّ كلمة حسابها. لكلّ من يتّصل بنا أو يخالطنا. حتّى وصلت بك إلى برّ الأمان والاطمئنان».

تزحزحت بعياء لأنظر إليه جيّداً، وغمغمت: «من هذه اللّحظة، ناصر، أفهم ما يدور في رأسي. أنا لن أتعامل معك، أو مع غيرك، إلاّ على أساس حرّيّتي. لن أكون مسلّمة من مسلّماتك».

«أنت منفعلة. أنت تستعملين لغة يهوذا أبو حاتم».

نهض ومشى إلى الباب. هناك توقّف. التفت ونظر إليّ نظرة حزينة. قال: أنا أحبّك، نادية. وحياتي لا تساوي شيئاً بدونك. وكرمى لهذا الحبّ تقبّليني مثلما أنا، واغفري أخطائي. وأنا، كرمى لك، سأنام على الصّوفا اليوم. يمكن، أنت متهيّئ لك أنّي غول. لكنّك ستنسين الكدر إذا تذكّرت كم أحبّك. ستتذكّرين كم أنا أحبّك عندما تروقين وتصفو روحك. سينتبه عقلك إلى أنّي أقدّم حياتي فداء لك، وأنّك أغلى عندي حتّى من هذين الطّفلين. وحبّي لك هو الحياة نفسها».

كلّ شيء في قسماته وعينيه كان يقول هذه الكلمات.. كلّ شيء في

كتفيه ووقفته وحشرجة صوتـه. ولم يكن ليسع امـرأة مثلي، في ظـرف آخر، إلاّ أن ترمي نفسها عليه وتطوّق بذراعيها عنقه.

غير أنّني كنت في واد آخر. ليست المسألة: عـلى من تقع المـلامة. أظنّني أنا الملومة. أنا أعطيته كلّ سبب ليعتقـد أنّني قبلت بالشخصيّـة الّتي رسمها لي منذ زواجنـا. لذلـك أمضيت الأيّام الأولى بعـد إبلالي من وعكتي، وأنا أتساءل: نادية رويحة، أنت ماذا تساوين؟ وأتساءل: نادية رويحة، ما هو الحبّ؟ وماذا يعني أنّ ناصر الصّفوي يحبّك.

ذات ضحى، جرؤت بسبب اليأس، وخرجت من الشّقة. مشيت في الشّوارع. لأوّل مرّة بعد انقشاع الكابوس. رأيت الرّجال والنّسـاء والسيّارات والدكاكين، وهذا العالم الزاخر النّابض المندفع الصّاخب. وسألت نفسي: أين أنت بين هذه الجموع؟

لم أعرف كم تعبت من المشي إلاّ عندما تحوّل كـلّ ذلك التّعب إلى حزن. مادام الحبّ تجسيداً للجمال والحياة في الطّبيعـة، فمن أين ينبع كلّ هذا الشّقاء ويصاحبه؟ وقد أمسك الحزن بيدي، وقاد قـدمي إلى مقهى (ويمبي). دخلت: خائفة من أن أرى نـاصر هناك ومتمنّيـة أن أراه. أردت حمايته من العيون الملتهمة، وخفت من مشاكله. لبرهة أو اثنتـين هممت بالـرّجـوع تفـاديـاً للمضـاعفـات. لأنّ نـاصر حتـماً في الدّاخل، ومعظم شغله يتمّ عبر لقاءاته هنـا في هذا المقهى. إن يـرني سينصعق، وسيجرّني من يدي خارج المقهى، مهما كانت العواقب.

أنت لا تساوين شيئاً يا ناديـة رويحة. لا تسـاوين شيئاً. ويجب أن تعـودي أدراجـك بصحبـة التّعب والحـزن. عـودي إلى الضّـاحيـة، فـالحـارة، فـالبيت. هنـاك حيث تنتـظرك أقـدارك: تــرتيب البيت،

الـطّبخ، الجـلي، الغسيل، الكيّ، تنـظيف الأولاد، تعطيـل العقل، وأخيراً افتراسات ناصر لك.

وجـدت نفسي وسط المقهى. شاغلتني المفـاجأة عـمّا في خاطـري. ليس فقط مفـاجأة دخـولي، وإنّمـا غيـاب كـلّ الـوجـوه الّتي تـوقّعت رؤيتها. بغتة، وإذا أنا وسط حشد هائل كثيف من الغربة والغـرباء، وأنا ضائعة فيه.

رأيتها غربة سعيدة، ورأيتهم غرباء رائعين. ورأيت ضياعي بينهم بسـاط ريح يحملني خـارج الحزن. تلفتّ حـولي بـاحثـة عن طـاولـة شـاغـرة. لم أجـد. ولم أستغـرب. هـذا هـو مقهى المثقّفـين ورجـال الأعمال. صمّمت على البقاء. تلفتّ حولي بهدوء، أبحث عن مكان، رغم شعوري بأنّي بتّ بلا ملابس وسط مستنقع من العيون المحدّقة.

كنت أرتجف. لا تعبـاً بل خـوفاً. خفت أن أرتمي عـلى الأرض في اللّحظة التالية. وصارت الـطاولة والكـرسي ضرورة وملاذاً. تقـدّمت نحـو عمق المقهى. وفي الـزّاويـة الأخـيرة إلى اليســار لاقيت بغيتي: طاولة مركونة في العتم. أسرعت قبل أن يسبقني أحد إليها. وفوجئت بـه. شابّ عـاديّ الشّكل، عـاديّ في كـلّ شيء، يجلس منكبّـاً عـلى أوراق، وبيده قلم.

رفع الشابّ رأسه إذ وصلت إليه. وفوراً أغناني عن الكلام. أشار لي بيده أن «تفضّلي». جلست. وضعت جـزداني على الـطاولة. أزاح الشّاب أوراقه قليلاً. انكبّ عليها.

تـأمّلت المكان من مـوقعي، وأخذت مشـاعر جـديـدة تصعـد إلى وعيي. رأيتني أبتسم بغبطة غير طبيعيّة: مؤكد لـو أنّ السّت مقبولـة، حـلاّبة بقـراتنا، جـاءت وجلست وسط هذا البـازار البشري، لبدت

أقلّ انفعالاً وأكثر تماسكاً. لم يكن فرحاً ما شعرت به. كـان نوعـاً من الطّمأنينة القريرة، لا الفرح. طمأنينة حزينة، حـزنها شفّاف وأنيس، بسبب أنّني، لأمر ما، رأيت هؤلاء المئة من النّاس حولي محتاجين مثلي للنّاس.

ظهر النّادل على حين غرّة. وبحركة انسيابيّـة رشيقة وضـع أمامي فنجان اكسبريس، ثمّ اختفى قبل أن تأتيني اللّغة فأعـبّر عن دهشتي. نظرت إلى الشّاب فوجدته يبتسم ابتسامة لا علاقة لها بانشغالـه. كان قلمه يرسم صَدَفة داخل مستطيل، نصف مفتوحة عن لؤلؤة.

دون أن يرفع رأسه قال: «وفّرت عليك الوقت. شفتك تعبانة».

قلت: «شكراً. لكن أنا سأدفع».

ردّ دون أن يرفع رأسه: «طبعاً. كنت متحيّراً كيف أقول لك».

شربت القهوة باشتهاء. وشربت الضّجيج، والحركات، والوجوه، والنّـوافـذ الـزجـاجيّـة في الـطّرف الآخـر، والأشكـال الّتي وراءهـا، والسيّارات، والمدينة.

ذهب التّـعب وبـقي الحـزن. عــاد لي شيء مـن القــوّة ـ لا قــوّة البدن فقط، بل وقوّة الرّوح. لكن موجة كاسحة من الخذلان جرفتني لحظةَ هممت بالقيام وتذكّرت أنّي عائدة إلى البيت.

فتحت جـزداني وسألت الشّـاب كم ثمن القهوة. هـذه المـرّة نـظر إليّ. وسألت عيناه من هذه البنت الغريـرة الّتي لا تعرف ثمن فنجـان إكسبريس في مقهى (ويمبي). ابتسامة خفيفة رافقت كـلامه: «دولار من دون البخشيش. الدّفع هنا بالعملة الصّعبة».

أجبرت وجهي على تقبّل مزاحه. وضعت ورقة ماليّة عـلى الطّاولـة وقمت.

«لا، لا، أرجـوك. ادفعي عنـك وبس. أنـا لا أحبّ عـمـل المعروف».

«سمّها ضيافة»، قلت محبطة.

«التّسميات كلّها زعـبرة». ومدّ يـده إلى جيبه فسحب ورقـة ماليّـة ومدّها إليّ.

لم أكن أريـد العـودة إلى البيت. ومـع ذلـك عـدت. في التّـاكسي اتّسعت نفسي وخواطري، فـانتعشْت. حتّى ذلك الـوقت المتأخّـر من الظهيرة، كنت أحسّ بالرّاحة والحرّيّة. وفي الزقاق الموصـل إلى البيت داهمني جزع العائدين إلى زنزانة، ورعب إطلالة ناصر عـليّ. عشرين مرّة راجعت تفاصيل مشواري ذلك النّهار. كان عاديّاً تماماً. إلاّ أنّي لم أستطع اقتلاع رعبي من ناصر. سيثير إعصاراً بالتأكيد، لأنّي جلست إلى طاولة الشّابّ الغريب.

دخلت البيت. اطمـأننت إلى غيـاب نـاصر، فـاحتقـرت نفسي. جلست عـلى الأريكة وغمـرت وجهي براحتي. من الّـذي وضـع كـلّ هذا الخوف من الرّجل في قلب المرأة؟ إذا كنت أنا عـلى هذا النّحـو، فكيف بالنّساء المعتمدات على أزواجهنّ في كلّ أمور العيش؟

لم يأت ناصر إلاّ عند المغيب. قال إنّ حياتنا تمرّ الآن بأزمة، وريثما تنجلي فقد وضع الولدين عند عمّتهما. بدا منشرحاً وحيويّـاً، واثقاً من أنّ الأزمة ستنتهي على خير ما يرومه هو. «كيف حالـك الآن»؟ وكان واضحاً أنّ لديه جواباً مؤكّداً: كم أنت أفضل الآن!

أراد ذلـك المساء أن يؤكّـد لي بالـدّليل القـاطع أنّ كـلّ شيء عـلى مـايرام. أدهشني أنّني فقط أثنـاء ذلك الأسبـوع بـدأت أفهم نـظرتـه الحقيقيّة إلى الحياة. إنّه لشيء فاجـع حقّاً أن لا نتمكّن من فهم هؤلاء

الّـذين نعيش معهم ونحبّهم، إلاّ بعـد سنـوات وسنـوات. أربـع سنوات كانت قد مضت. وكلّ الـوقت وأنا أظنّ نـاصر ذلك الـرّجل الذي التقيته أوّل مرّة، والّذي تصوّرته منذ ذلك الحـين يحمل رشّـاشاً ويطلق ناره على معالم الرّثاثة والاستنقاع في حياتنا. أربع سنوات وأنـا أعتبر أخطاءه موقتة، وأنّي سألتقي بناصر الّذي أحببت عمّا قريب.

أعـترف أنّني امرأة بـطيئة الفهم في هـذه المسائـل. ربّما لأنّي آخـذ النّاس بثقة فطريّة. في المساء، جعل ناصر يداعبني في الصّالون تمهيداً لتقـديم ذلـك الـدّليـل. وكنت أنـا في المنـطقـة العـازلـة بـين قـطبي المغناطيس، خشيت إن أنا نفرت أن يثير زوبعة، وإن تقبّلت أن أتقيّأ روحي.

كانت يده تجوب ظهري بحنان، وتمسح على زندي. تركته يتحرّك كيفما شاء. لاشك أنّه خبـير في إيقاظ جسـد المرأة. يعـرف أين يضع يده، وأين يضغط، ويلثم، ويفرك، وينسـاب. . . راقبته وهـو يدقّق في التّنفيذ، ويرسم خطّاً بيانيّاً لارتفاع تأثّري وانفعالي.

أدرت وجهي إليه وسألته: «ناصر، كيف يعني أنت تحبّني»؟

كانت شفتاه توشكان أن تحطّا على تدويرة كتفي. غمغم لي: «كلّ هذا وتسألين»؟

قلت: «أيّ رجل يمكنه أن يعمل لي هذه الحركات».

دون أن يـرفع شفتيـه عن كتفي، قال: «إنّمـا أنا الـرّجل الـوحيـد الّذي تؤثّر حركاته فيك».

رفـع رأسه ونـظر في وجهي: «ما لـك؟ كأنّـك تتعرّفـين عليّ. أنـا نـاصر. زوجك. الّـذي بينك وبينـه عقد ملكيّـة متبادلـة. ما لـك يا نادية؟ غير معقول أن تكون الخرمشات الأخيرة لها تأثير عليك».

انكبّ ثانية عليّ. انشغل بوجهي وعنقي وذراعي، وترك خيالي وذاكرتي وذهني.

أخيراً وقف والتقط زنديّ. رفعها قليلاً، وانتظر أن أعلو معها، لنتّجه بعدئذ إلى الفراش. لا أعلم إذا كان الرّجال كلّهم يخضعون نساءهم بدغدغات الجنس. عندما تتباسط جاراتي في الحديث، يطلقن تلميحات سفيهة مثيرة، ويطلقنها بغموض مفعم بنشوة مستترة وفاجرة. حتّى إذا غدا التّلميح أقرب إلى التّصريح، أصابهنّ خجل مذلّ، واستغفرن ربّهنّ بندامة وضيعة.

طوّقني ناصر بذراعيه ودفعني أمامه دفعاً لطيفاً. قال: «مادام الأولاد عند عمّتهم، خلّينا نقضي أسبوع عسل من جديد. لا نرى أحداً، ولا أحد يرانا».

عند باب غرفة النّوم أخذ ينزع عنّي قميصي. أوشكت على ضحكة صغيرة متهكّمة، وأنا أراقبه مستغرقاً في هذا «العلاج» الجسدي لأوجاع روحي.

بدأ تقنيّته المرهفة المتطوّرة من جديد. باديء الأمر، تمدّدت على خاصرتي اليمنى، ملمومة الأطراف، وراحتاي تحت خدّي. وأطلّ هو عليّ مثل رخّ يغطّيني بجناحيه ويناغيني. وتركته يمسح تلك الأرض الصّماء الباردة.

مضت دقائقه المعدودات الّتي حسبها دائماً بالحاسوب. ودائماً نجح بعدها في شحن خلاياي باللّهفة والشّبق. البخور الّذي كانت سلاميّته تنشّه في أعطافي، صار قطرة ماء سقطت، تدحرجت، ثمّ تزمهرت. بقيتُ متلملمة على خاصرتي اليمنى. لم أتحرّك. بلمسة هي

بين المداعبة والخشونة أدارني على ظهري. ثمّ بدأ دورة اضطراريّة جديدة من الإثارات.

كان سديم مخادع يتجمّع حول عقلي. ومع استمرار الحاسوب في تشغيل برامجه، أخذ السّديم يصير قواماً، يصير ستارة تنسدل بين عقلي وبيني، ويفسح المكان لمجامر تتّقد في دمي. لا تصدّقوا أنّ أيّ عقل حرّ. كلّه خاضع لفوران الدّم. وهناك مناطق يفور فيها دم آخر هو الطّابور الخامس في جسدي، المنصاع لرغبات ناصر.

هذه هي الحقيقة الّتي تعينّ عليّ الاعتراف بها مرّة أخرى، ذلك اللّيل. هذا هو الرّعب. حبّي لناصر عنى فقط أنّ جسدي يفرّ منّي إليه. كنت وحيدة وشقيّة حتّى الذلّ. وكان وجود ناصر بأيّة شروط ضمانة لكوني لم أقدّم نفسي لفراغ أبله. كان جرحاً.

ذلك الجرح أعطى روحاً لنادية ثانية طلعت من بين شفرتيه، قامة مخضّبة بالدّم، معجونة ومتكرمشة مثل سريرها في اللّيلة الأولى وليلة الاغتصاب. نهضتْ من وراء الستارة الّتي انسدلت أمام عقلي ووعيي. أخذت تتفرّج عليّ وأنا أشهق وأتحشرج تحت سطوة جسد ناصر وأطرافه، وأرشف من شبقي القادم دليلاً مخمليّاً على أنّ حبّنا أعمق من أيّ جرح.

في اليومين التّاليين جعلتني نادية المدمّاة أكتشف الطّابور الخامس. وتلفّت حولي بمئة عين أبحث عن مكان آخر ـ مكان ليس هذه الشقّة، ولا هذه الضّاحية ولا هذه المدينة.

خرجت إلى المدينة. وما إن وطئت قدماي الرّصيف حتّى رقصت المدينة في خاطري. لم تكن مثل بلدتي القديمة ـ لا أشجار ولا أزهار ولا نحل. غير أنّها مدى واسع شاسع. وأنا فيها محجوبة داخل

أسراب فائرة من الأصوات والحركات والأشكال والرّوائح، مستغرقة بالكامل في هذا النسيان الرّحماني الجميل.

مشيت ومشيت. رأيت كلّ شيء جميلاً مادام لا يمدّ يده إليّ. لا يقتحمني. ودون أن أعي، وجدتني بحذاء (ويمبي). في اللّحظة التالية، حملتني شجاعة يائسة نحو الباب، ودخلت.

المشهد السّابق نفسه. الطّاولة الأخيرة وذلك الشّابّ نفسهما.

لم يفاجأ الشابّ برؤيتي. بدا ودوداً ـ ومريحاً لأنّه لم يرحّب بي ترحيباً خاصّاً. ثمّ جاء فنجان الإكسبريس. نظرت إلى رسومه الّتي زادت عن اليوم السّابق وصارت عشر رسوم. أتاح لي أن أنظر إليها دون أن ينقطع عمّا بين يديه. ثلاثة رسوم للصدفة واللآلىء، على ما أذكر. ثمّ صدفة تتفتّح عن لوح صابون! مكتوب عليه: لؤلؤة. ورسم للوح الصّابون غاطساً في ماء نقي وناثراً حوله ستّ قطرات... كانت رسوماً جميلة، وإن بلا معنى.

رفع الشّابّ رأسه وقال: «ممكن سؤال يا آنسة»؟

هززت رأسي بالموافقة، وخاصّة بعد كلمة «آنسة» تلك. وحدّقت إليه بفضول.

عاد إلى رسمه وجعل يشطّب عليه شطبات محسوبة. قال: «أنا جدّاً أرحّب بجلسة مع بنت حلوة. لكنّ هذا المقهى كلّه أدمغة فاسدة وألسن مسمومة».

ـ «أنا لا يهمّني»، قلت بنبرة.

تمتم بهدوء باسم: «واضح. والدّليل نبرة صوتك». وبهنه قليلاً ثمّ أضاف بفظاظة: «لماذا أنت حتّى الآن لست ملكاً لأحد»؟

خطر لي أن أناكف هذا الولد المغيظ المغرور. افتعلت ابتسامة

فضفاضة وقلت: «يا ريت. كانت حياتي تزّينت بأجمل ما في الحياة».

توقّف عن شغله تماماً، ورفع رأسه. أربكني. نظر إليّ بدهشة، وشيء في الخيبة العابثة.

ـ «ما لك»؟

حرّك حاجبيه حركة تسليم، وعاد إلى شغله: «أنت صادقة طبعاً».

صمتنا برهة. كرهت أن أستمرّ في الادّعاء. راقبت روّاد المقهى بلا اكتراث، متوجّسة من أن يهبط ناصر فجأة ويراني. نصف ساعة وأنا أتوقّع أن أرى وجهاً من مئات ضيوفي يأتي ويسلّم عليّ. كلّما لمحت وجهاً، وظننته واحداً منهم، أرسل نحوي نظرة تتفحّصني كأنثى، ثمّ تعبرني وتنتقل إلى مكان آخر. وظلّ غياب ناصر لغزاً.

وجدتني أتأمّل أصابع الشّابّ، وقلمه وورقته. كان يرسم بيده اليسرى.

قال دون أن يرفع رأسه: «خسارة، أنّك جئت بعد انقطاع الشلّة الصفويّة عن المقهى. كانوا سيجدون فيك نصيرة خارقة. واحدة أنثى، ومكثرة من أنوثتها، تؤيّد فلسفاتهم».

كان ولداً مغيظاً ومغروراً. يراني فائقة الأنوثة ومع ذلك لا يراني. مرّتين جلست معه، مع لطفه وحساسيته، ومرّتين لم ينبّهني أيّ تصرُّف منه إلى أنوثتي. مع أنّي جئت والأعين تتلاطم عليّ بشوقها وتفحّصها وتدقيقاتها. لاشك أنّ ناصر سيكرهه لو عرفه.

قلت له بلا مبالة: «ما هي هذه الشلّة الصفويّة»؟

قال بلا مبالاة مماثلة: «ناصر الصّفوي وشركاه».

اشرأب في داخلي ترقّب مباغت والتهب. «هؤلاء انقطعوا عن هنا؟ لماذا؟؟»

وضع ورقته بين يديه وتأمّلها. لم تعجبه. مزّقها قطعتين، ثمّ أربعاً، ثمّ ثمانياً، ثمّ. . . كانت القطع متساوية المساحات تساوياً مدهشاً. تناول ورقة جديدة وانكبّ عليها. «اختلفوا».

ـ «اختلفوا لماذا؟ ودار النّشر»؟

رفع الشابّ عينيه فقط نحوي: «تسألين لماذا؟! الملكيّة، عزيزتي. الملكيّة. يقدّسونها كطبيعة بشريّة».

كانت جرعة فلسفيّة ضخمة من شابّ لم يبد أنّه يحسن شيئاً أكثر من الخربشة الشيّقة على ورق صقيل. فهمت سبب عزوفه عن أنوثتي: إنّه رجل مشغول الذهن بالمسائل الكبرى!

لم يجب عن سؤالي الأخير. بدلاً من ذلك، اكتسحت موجة انتباه مذعور ملامح وجهه الدّقيقة وعينيه الكبيرتين. وبصوت التهم الخجل والاضطراب نصفه، هتف: «مدام نادية! أنا فعلاً غبيّ. . قصدي، فعلاً آسف. أنا الحمار الوحيد في العالم الّذي يمكن أن ينسى وجهك. مع أنّ شغلتي هي الرّسم».

عرفت أنّه واحد ممّن زاورا بيتنا يوماً. إنّما لخمني أسفه وارتباكه. بسرعة، قلت أوّل كلام خطر لي: «أظن أنّك ستدفع ثمن فنجان الإكسبريس هذه المرّة».

زنخر أنفه. ضحك ضحكة صغيرة ونبر: «أمرك. مع أنّ روحي هي الممتنّة لك، وليس جزداني».

اختفى الضّحك من وجهه، وحلّ محلّه تساؤل منسرح: «أخيراً

جئت إلى هذا المقهى. وأنا بعد فترة سأغادر هذه المدينة. أنا أنتظر مجيئك من سنتين.. نظرياً».

لن يمكن سرد تفاصيل ذلك الحديث كلّها. قال هلال ـ وهذا هو اسمه ـ إنّه حضر واحدة من ولائمي في العاصمة. وبعدها «استثناه» ناصر من كلّ وليمة لاحقة. لقد توقّعت منه عبارات الثناء والحمد، فنال منه عبارات النّقد اللاّذع على «استهلاكه» امرأة يجب أن يخدم الرّجال عقلها، لا أن يخدمهم. إنّ لناصر موهبة متفوّقة في الاعتقاد الجازم بأنّ كلّ رجل عشيق محتمل لزوجته. لذلك أراد الحفاظ عليها كما يحافظ المرء على ودائعه في البنك. وقال هلال إنّي لا ينبغي أن أصدّق خزعبلات الكرم والضيافة هذه، فنحن شعب تجارته الكبرى هي الكرم والضيافة. إنّنا نملأ بهما فراغ حياتنا البائسة. «نشتري بهما الحبّ، أو الصداقة، أو المغفرة. أو نعقد الصفقات».

ناصر بالذّات أراد إقناع ضيوفه بألوهيّة سيطرته على زوجته. «طبعاً كلامي قاسٍ جدّاً عليك. آسف، أنا لا كلام عندي غيره».

فتحت جزداني بتوتّر. تناولت ورقة ماليّة وخبطتها على الطّاولة. تأبّطت الجزدان وقمت. «بخاطرك». مشيت. عبرت المقهى بين ضفّتيْ عيون تلاطمت أمواجها على جسمي.

لم تكن انتهت بعد المهلة الّتي رآها ناصر ضروريّة كي «أصفو» وأعود إلى «طبيعتي». جلس في ذلك المساء مقابلي، وضمّ ركبتيّ براحتيه. حدّثني بكلّ ما في روحه من صفاء وحلاوة. أنا لا أعرف ما هو الحبّ، لا أعرف. لكن ناصر تكلّم في ذلك الوقت كعاشق. رأيتني غالية عليه، مركزاً لدائرة حياته. أراني شاطئاً من الأمان في كوني ست بيت. وشاطئاً آخر في كوني أمّاً. وسعادة تدفق على هذين

الشّاطئين ـ هي هذا الحبّ الّذي رمانا أحدنا بين ذراعي الآخر.

يقـول بعض النّـاس إنّ الحبّ وهم. لا أعـرف إذا كـان هـذا صحيحاً. كنت وأنا أسمع كلام ناصر أحسّني سفينة آبت من الضّياع والقلق إلى مينائها الوحيد. ذلك الإحساس كان حقيقيّاً. وقـد جعلني ألتقط راحتيه وأسأل: «قل لي بالأوّل ما مشكلة دار النّشر»؟

غيّم وجه ناصر وامتقـع. نظر إليّ نـظرة ربداء. وأحسست أنّ مـا كان قبل ثوانٍ حقيقيّاً قد صار وهماً وخيالاً. قبل أن يفتح فمه، رأيت التّـداعي والانهيـار. قبـل أن يقـول التقط زنـدي وهـرسـه، ثمّ فـح بوجهي:

ـ «اجتمعت بهم؟ أبو حاتم؟ أو ذاك الكلب الثّاني»؟

هتفت به متوسّلة: «ناصر! لم أجتمع بأحد! لم أجتمع بأحد»!

«أنت الـزمي بيتـك وبس»! زجـر هـو. «ارجعي مثلما كنت قبـل زيارة رعد. فاهمة»!

هتفت به: «خلّني أشتغل معك. خلّني أقف معك».

«شغلك هو بيتك. فقط لا غير. فاهمة؟ هكذا تقفين معي».

هتفت من جديد: «نـاصر أرجوك اسمعني. أنـا خلص ما عـدت أقدر. طريقة حياتنا السّابقـة، يجب أن تنتهي بالمـرّة. أنا صرت مثـل الآلة. وحياتي مثل الموت».

تحـرّك إلى الطّاولـة وتناول سيجـارة: «البيت والأولاد وأنـا! شغـل كافٍ ووافٍ».

أشعل السّيجارة. أطلق نفساً طويلاً من الدّخان. قال: «المجتمـع ينظّم نفسه بحيث أنّ مسائل الأسرة تتكفّل بها المرأة، ومسائل الإنتاج يتكفّل بها الرّجل. أنت اتركي الأمر لي. افعلي ما أقوله لك».

قلت بهـدوء وديع: «نـاصر، أنا مصمّمـة أن أحدّد مهـمّات حياتي بنفسي».

«يعني أنت تتحدّينني»!

«أريد أن أكون ما أقدر أن أكون. ولازم أن تساعدني».

«يعني تتحدّينني»؟

«لا تجعل حرّيّتي تحدّياً لك».

«وأنت لا تجعلي حرّيّتك تحدّياً لي».

- ٥ -

حاولت أن أعبر ذلك المستنقع. حاولت بكلّ قوّتي وبكلّ إرادتي. أردت أن أجعل ناصر يراني كائناً يزيد عن الصّيغ الّتي أحبّني لأجلها. رجوته أن يراني ويحبّني باعتباري الفلقة الثانية في بذرة الحياة.

حاولت وفشلت. مددت يديّ لأنتشل الضّبع وأرمي به إلى البرّ. كلّما التقطته وجدته مشرشاً في الغور. كان مربوطاً إلى أعماق المستنقع بحبال خفيّة ماكرة، حبال مستحيل قطعها، ومستحيل خلاصي منها.

أردت أن أفهم ماذا حدث لدار النّشر. ذهبت إلى المكتب فلم أجد شيئاً. باب مغلق وحسب. ركبت تاكسي إلى بيت أخت ناصر، وقالت هي إنّ الأولاد مع أبيهم. لم تزد حرفاً واحداً.

فجأة وجدتني وحدي تماماً - إنسانة متورّطة بالعيش، متورّطة بالفراغ والوحشة. امرأة لا تعرف الدّهشة وإنّما الذهول. ولا الأفق، وإنّما الدّوائر المغلقة.

يممت نحو (ويمبي). هذه المرّة لم أجد هلال مطر. جلست بدون استئذان إلى أقرب طاولة. كان جاري الّذي تطفّلت عليه شابّاً يقرأ الصّحف المحليّة. وما إن رفع رأسه ليتصفّح الأنثى الغريبة الّتي جلست، حتّى هبّ جسده بالتعرّف والإجلال والمرحبة. «مدام نادية»! وانثالت الكلمات. وانثال الانفعال. وانثالت الإشارات إلى النّادل أن يأتي، و«ماذا تشرب المدام»؟..

كان الولد كائناً طريّاً في البداية. وعندما عبّر لي عن أسفه لانسحاب أبي حاتم وأبي واسع من دار النّشر، أحسّ بقدر من الأهمّيّة

والمعلميّة. وبعد دقائق اكتشف، لدهشته، أنّ بوسعه مغازلتي. وللتـوّ أقام خمسة جسور أو ستة بيننا.

واحد من تلك الجسور كان حديثه عن المعارك الفكريّة في (ويمبي) بين ناصر وهلال مطر، بصورة خاصّة. . . بين واحد يؤمن باستحـالة استمرار الحياة دونما جذور، وآخر يرى أنّ لكـلّ حياة تـربة مغـايرة، وجـذوراً جديـدة. «هلال مـطر يظلّ مـراهقـاً. أمّـا الأستـاذ نـاصر! الحقيقة، يجب الاعتراف بأنّه يستحقّ امرأة رائعة مثلك».

التفت إلينا شخص كان قد تجاوزنا. وجهه نـاطق بفرح المفـاجأة. وعاد وجلس مسلّماً: هلال مـطر. انتفض الفتى مرحّبـاً مسلّماً، وأزاح نحو هلال كرسيّاً. وفرقع أصابعه منادياً النّادل.

ـ «كيفك نادية».

ـ «نشكر الله. ظننت أنّك لا تغادر المقهى».

ـ «بالعكس. شغلي يتطلّب حوسات كثيرة. . على الشّركات ودوائر الدّولة».

ـ «ألست رسّاماً. . لمجلّة أو شيء ما»؟ سألته باستغراب.

ـ «لشيء ما. لشركة الخدمات الإعلاميّة».

•

تطوّع الشابّ فشرح لي أنّ «الأستاذ» هلال ممثّل هذه الشّركة هنا، وأنّ المقر الرّئيسي هو في العاصمة الثانيـة وأنّ (الخدمـات الإعلاميّـة) تعني الدّعايات التجاريّة في التلفزيون، وأنّ «الأستاذ» هلال موهـوب في عقـد الصّفقات مـع المعلنين، مثلما هـو مـوهـوب في تهيئـة رسـوم إعلاناتهم.

اعتذر هلال عن ضرورة مفارقتنا. «وربّما إراحتكم منّي نهائيّاً، يوم أعـود إلى العاصمـة «الثانيـة»، كما قـال. أعطاني بـطاقته. قـال إنّـه

سيكون هنا كلّ يوم في التّاسعة صباحاً والرّابعة بعد الظهر، إلى حين انتقاله.

ما حدث ذلك الصّباح صار جثّة ثانية في المساء، طافية على غور المستنقع. مؤكّد أنّ ذلك الولد هو الّذي أخبر ناصر في وقت بين الوقتين. كان وجهه أزرق عندما فتح الباب ودخل. وظلّت يده دقيقة كاملة وهي تغلق الباب. تصمّغت نظرته بوجهي، خالية من أيّة أمارة أو حرف. كان سماء قاتمة جامدة، تخثّرت فيها الغيوم.

تقدّم ببطء حتّى وقف أمامي. راقبته من مكمني على الأريكة. لملمت ساقي تحتي، وترقّبت الخطوة التالية. قارورة ذعر خاثر كنت. دودة قبعت في شقّ، خوف انكشاف حركتها. أرنبة محاصرة كنت، فريسة قامت بحركتها الأخيرة ثمّ جمدت بانتظار وصول الذئب.

ـ «قلت لك لا تجعلي حرّيّتك تحدّياً لي».

لم أردّ. التقطّع الّذي لفظ به عبارته قطع عزيمتي. في تلك اللّحظة أردت شيئاً واحداً فقط: أن لا ينفجر العنف. العنف هو أبشع ما يمارسه البشر. وبالنّسبة للمرأة، هناك ما هو أكثر من البشاعة. إنّه ذلك الشعور بأنّها لم تعُدْ شيئاً، بأنّها فقدت كرامتها وبشريّتها لكونها لا تجيد اللّكم أو الرّفس أو تكسير العظام. ولخير لك أن تموت من أن ترى نفسك عاجزاً. وفي تلك اللّحظة أردت شيئاً فوق كلّ هذا: أن لا يتداعى ناصر في وجداني، ويهوي، بحيث لا يبقى منه سوى الغبار.

لا أدري إذا كنت في تلك اللّحظة قد اتّخذت قراراً غافلاً غير واع، هو أن أترك ناصر وأبحث لنفسي عن حياة جديدة. غير أنّي،

ورغم ذلك الاحتمال، كرهت أن أرى ناصر في أيّ ظرف مجرّد علبة كرتون.

- «جلوسك مع هذا الكلب.. من بين جميع النّاس.. هذا تحدّ لي. هلال مطر كلب. وأنا أمنعك من صحبة الكلاب».

لم أردّ. كنت أعرف أنّه يكره هلال مطر، ولكن ليس إلى هذا الحدّ. وكنت أعرف أنّه لن يعطيني أيّة فرصة للدّفاع عن نفسي، عزمت أن أتقبّل أيّة لغة، كلّ إهانة وسفاهة، لأتفادى العنف.

- «هلال مطر، ممنوع. فاهمة؟ وأبو حاتم، وأبو واسع، ممنوع. كلّهم ممنوع. فاهمة»؟

- «وحيّان وحسّان»؟

- «كلّهم ممنوع».

ذلك اللّيل نام هو على الصّوفا. كنت أحسب حساب زحمة خانقة على السّرير، فوجدتني أتمدّد هناك وأتأرجح على فراغ حزين. فضاء الغرفة نفسه صار سريراً خالياً. واللّيل أيضاً. داهمني اللّيل. رزح عليّ بيقين ثلجيّ أنّ ناصر سيطردني من البيت في اليوم التّالي. رأيت ذلّ الخوف من العنف شعوراً أخفّ وطأة من ذلّ الشّعور بالحاجة. بحقّ السّماء، لماذا أنا محتاجة إلى ناصر؟ لماذا خفت من نبذه لي طول ذلك اللّيل الّذي أخذ فضاؤه يتكدّس بالجثث؟ لقد تحمّلت تلك الرّوائح سبع ساعات كاملات. روائح الزّنخ والتّعفّن. تحمّلت تحوّل السرير والغرفة واللّيل إلى مستنقع، وجسمي ممدّد فيه. وعند حلول الصّباح فقط جرؤت على أن أفكّر بالخروج.. بعد خروج ناصر طبعاً.

عندما غادر ناصر البيت، أقفل بابه من الخارج. جلست بكماء

عجزاء، لا أعرف هل أضحك قهراً أم آتي بأدوات النجارة وأخلع الباب. عند الظهر سمعت أصوات جاراتي، ورنين الجرس، و«يا ستّ أمّ حسّان»، «يا مدام نادية». طبعاً لم أردّ عليهنّ. حتّى أنّي لم أتحرّك. «كأنّها نائمة»؟ تساءلت أمّ عبد الرّحمن باستغراب. «امشي يا أختي، امشي. ابعدي عن الشّر وغنّي له»، نصحت أمّ حليم.

ذهبن. جلست وحدي. شكرت الله أنّ الولدين ليسا هنا ليشاهدا هذه المهزلة. أطرقت وفي نفسي نوع من الرّاحة الوادعة. لقد غدا كلّ شيء واضحاً. سؤال حياتي لم يعد: هل أخرج من هذا البيت؛ وإنّما: كيف؟

اتّصلت بأبي حاتم. ردّت عليّ امرأة تنظّف له البيت. ذكرت لها اسمي، وأعدت السمّاعة.

حوالي الثّالثة، لم يعد ناصر. اتّصلت بهلال: «عندك للسرّ موضع»؟ رفض أن يتعهد بالكتمان: «يمكنك أن تثقي بي».

حكيت له وضعي. ضحك ضحكة قويّة قصيرة. اعتذر. ثمّ قال: «لو قرأتها في قصّة لما صدّقتها».

- «كيف أخلع الباب»؟
- «إياك! العنف لا يجابه بالعنف».
- «ماذا أفعل»؟
- «إمّا اقبلي بشروط ناصر وإمّا اتركيه».
- «تنصحني بالقبول! أنت»!
- «أنصحك بالموقف الحاسم. ولا تنسي أولادك».
- «أترك أولادي؟ مستحيل»!

مرّة أخرى استرجعت حياتي الماضية. تساءلت متى بدأ هذا

الاستعصاء. وجدتني أعود وأعود. من عقدالملكيّة، إلى عقد دار النّشر، إلى عقد الزّواج، إلى عقد المعسكر. . . إلى ذلك اليوم عندما رمى ناصر إليّ بجعبة القنابل، وأمرني أن ألجأ إلى جوف الدّغل. أوّل لقاء، وأوّل حمل يرمى عليّ، وأوّل أمر أنفّذه، وأوّل مرّة أدخل فيها السّجن. ثمّ تتالت اللّقاءات والأحمال والأوامر والسّجون. وأنا دائماً غافية على سرير غفلتي.

ذلك هو الحبّ. أحببت ناصر لأشياء جميلة فيه: وسامته، رجولته، تكريسه، سعته، عنف وجدانه. وغفلت أو تغافلت عن أشيائه القبيحة. ذلك هو ما يفعله الحبّ: يجعلك تغفل؛ وبعد أن تنتبه، يجعلك تتحمّل. وإذا تحمّلت، ماتت روحك، أو تسمّمت. وإذا اخترت الحرّيّة، ملأك الرّعب.

عدت إلى الأريكة بعد حديثي مع هلال. كانت ثلاثة أسابيع قد انصرمت دون أن أرى أولادي. استعدت واسترجعت، حتّى غابت الشّمس. المساء كاتم أنفاس لكلّ روح حزينة. تساءلت أين أولادي. وأصابني المساء بحسّ الهول. تصوّرتهم بلا أبويهم إلى الأبد. كنت عارفة أنّي لن أستطيع أن أتحمّل أباهم بعد الآن. غير أنّي رفعت يدي بالاستسلام ذلك المساء. إنّني أحاول جاهدة أن أبعدهم عن قصّتي مع ناصر، لئلاّ أتشتّت. ما يمكنني قوله هو أنّني رأيت الموت الزّؤام مقبولاً ولا فراقهم. إنّهم نبضات قلبي، الّتي تطفر أمام عيني وتثب على الأرض. وأعلنت لنفسي قبولي بأيّ وضع، مقابل أن يعيدهم إليّ.

- «قل لي كيف تتصوّر الوضع المناسب لهم، وأنا مستعدّة للتّنفيذ».

وردّ عليّ بنبرة شَجْبٍ أبيٍّ: «أنت تتّهمينني بإخفائهم»؟

«أبداً، أبداً. أنت أبعدتهم حتّى لا يشوفوا خلافاتنا. خلاص. أنا لا أختلف معك في شيء. هاتهم».

صمت ولم يردّ. أشعل سيجارة ولولح بعود الكبريت زمناً قبل أن يطفئه: «ماذا يضمنك؟ أنت مثل ذنب الكلب ـ مستحيل تستقيمي».

«نزّلني في أيّ قالب تريده».

«شفت؟ يوم حبس واحد! لو تناقشت معك شهراً، ما جئت بنتيجة».

«متى تجيء بالأولاد»؟

«في الوقت المناسب».

قمت وصنعت قهوة. قدّمتها له في الصّالون. رشف رشفة، وأعاد الفنجان: «القهوة حلوة بزيادة».

«أعمل لك غيرها».

«لا، ما عليه. أنا ريقي ناشف، على كلّ حال».

حاولت أن أحادثه، ولم أقدر. أحسست أنّ ذلك أقصى استطاعتي. كان قلبي يشتعل، بعد أن تأكّد لي إخفاؤه الولدين عني. رأيت جثة ضبع جديدة تسقط في مستنقع حياتي بدويّ خامد، ثمّ تطفو بعد قليل إلى جانب شقيقاتها. ونظرت إلى ناصر نظرة هامدة العينين والبدن. هذا هو الرّجل الّذي أحببته. وها هي ذي أنا، نادية الّتي أحبّها. وغرقت في المستنقع.

وفجأة: أبو حاتم.

فتح الباب ودخل إلى جانب ناصر. «ما هذا الّذي أسمعه عن معاملتك لنادية»؟

كان مايزال له تلك الهيبة القديمة الّتي استحقّها أيّام المعسكر.

وفعلاً، لم يجابهه ناصر. اكتفى بالصّبر الجميل. وأعاد أبو حاتم السّؤال، ثمّ أضاف: «أنت لا تستحي على شرفك؟ واحد يخفي أولاده، ويقفل على هذه المخلوقة الباب! أنا أتساءل، هل كنت تقدّميّاً فعلاً لمدّة ساعة واحدة في حياتك»؟

نظر ناصر إليّ. رفعت يدين خائفتين أمام وجهي، وهززت رأسي بالنّفي.

«أختك هي الّتي حكت لي اليوم، أختك. هي الثانية مرعوبة منك».

لزم ناصر الصّمت.

- «قل لي أنت ماذا دهاك؟ سوّدت وجه الحركة التقدّميّة كلّها. سوّدت تاريخها. نحن بريئون منك».

لم يجب. التزم الصّمت؛ وظلّ أبو حاتم يتكلّم وحده. قال إنّه قبل بكلّ شروط ناصر، وترك له دار النّشر بكاملها، لكي لا يصيروا مضغة الأفواه. وكذلك فعل أبو واسع. فقط ليؤكّدا له أنّ لا أحد وراء زوجته ولا وراء مالها. . ولا أحد يريد الاستئثار بملكيّة الدّار. . . ويريدانه أن يفرح ويسعد بأنّه امتلك الدّار لوحده. . .

كنت في حالة من الذهول. متى تراكم كلّ هذا الوخم والقروح بين هؤلاء الإخوة الثّلاثة؟ وأين كنت أنا طوال هذه الفترة؟ كيف لم أفهم شيئاً، وهم يجلسون السّاعات الطّويلة حول مائدتي؟ أين عقلي؟ وأين فهمي ووعيي وانتباهي؟ أين أنا؟

كان أبو حاتم يسأل: «من أيّ شيء أنت خائف»؟

ابتسم ناصر بصفراوية ساخرة. وتمتم لي بهدوء: «اعملي لأبو حاتم قهوة».

قمت. استوقفني أبو حاتم: «لا أريد قهوته». والتفت إلى ناصر: «تعاليك هذا يرفعك فقط إلى ذروة جديدة من الضّعف».

ابتسم ناصر. أشعل سيجارة بهدوء. ثمّ التفت إليّ فجأة بنظرة شرّ منفجر: «قلت اعملي قهوة! ألا تسمعين الكلمة»؟ ونظر إلى أبي حاتم مبتسماً: «هذا أفضل من مهاجمة الضّباع لبيتي وزوجتي».

كنت قد مشيت خطوتين ثمّ توقّفت. وقف أبو حاتم وخاطبني: «بخاطرك يا نادية. خذي بالك من أولادك يا بنتي، والله يكون في عونك».

وخرج فأغلق الباب وراءه دون أن يودّعه إليه أحد منّا.

في الضّحى التّالي، خرج ناصر وأقفل الباب. أسبوعاً كاملاً ظلّ يقفل الباب. وظلّت جاراتي بعيدات عني. اتصلت بهلال فلم أجده في بيته. وجدته في المقهى. حكيت له وضعي المضحك، فضحك وضحكت.

ـ «أظن، زوجك مولع بتحدّي كتّاب القصص. ماذا تريدين الآن»؟

قلت إنّي أريد أن أخلع الباب. ووصفته له.

ـ «أظن هذا النّوع من المفصّلات مثبّت حول مسمار طويل من فوق لتحت. اخرجي المسامير الستة من المفصّلات، وبدفعتين ثلاث، يمكنك إخراج الباب كلّه من إطاره».

«وأنت ستدفع الباب».

صمت. صمتنا. حتّى تلك الدّقيقة لم يعن لي هلال أيّ معنى شخصي. بالعكس. لقد طمأنني إليه أنّه الوحيد من ضيوفي الّذي لم يتذكّرني. لكنّني وجدت نفسي أتخيّل الباب وهو ينزاح ليبرز هلال في

الفضاء المنشقّ ويتقدّم نحوي، يتقدّم نحوي...

هو لم يكن مطمئناً. وقد أخبرني بذلك فوراً. لم يغيّر نبرته الحياديّة البشوشة. إنّما تكلّم بصراحة. قال إنّه لا يريد أن يتقمّص شخصيّة خلبيّة يسمّيها النّاس: فارس الأحلام. وقال إنّ مجيئه لإخراج الباب سيكون عملاً يدوّي في وجداننا كِلَيْنا. وبعد فترة نجد نفسينا نخوض في سَبْخَةِ وَهْمٍ أتقن البشر صناعته عبر آلاف السّنين ـ وهو الحبّ.

ثمّ استدرك وهتف: «أنا آسف. أحياناً أنا أنفعل بهذا الشّكل الفظيع».

ـ «تكلّم ولا يهمّك. أظنني أشاركك آراءك. لماذا الحبّ وهم»؟

ـ «تريدينني أن أنقذك وأتفلسف؟ لا يا عزيزتي. أنا عازم على إنقاذ بقيّة عمري من سجن اللّغة».

ـ «طيّب. أنا على كلّ حال لا أعرض عليك الحبّ. أريد مساعدتك وبس. ستأتي أو لأ»؟

ـ «سآتي».

أحسست أنّه بذل جهداً ليقولها؛ لكنّه قالها بقوّة. وهذه المرّة خفت أنا: «وإذا رجع ناصر وقتها»؟

ـ «لكي تجني من العالم أجمل ما فيه، عيشي في خطر. هكذا يقول نيتشه أفندي».

وصفت له البيت. أسرعت إلى درج في المطبخ. أخرجت العدّة. تلك كانت أوّل مرّة في حياتي أمسك قدوماً ومسماراً. رأيتني في غابة من الاضطراب والحيرة. لا أعرف ماذا أفعل ولا كيف أفعله. لكنّني لحظة وضعت رأس المسمار، ورحت أطرقه على مسمار المفصّلة،

أحسست تماماً أنّني أستخرج نصلاً غائراً في جسدي. صرت أنا المفصّلات، وتلك كانت مسامير ناصر المغروزة فيّ.

وصل هلال، وكنت أُخرج المسمار الأخير. «أنا مضطر للإعجاب بمقدراتك العمليّة»، خاطبني من وراء حجاب الباب. وبعد صمت دقيقة كاملة، بل أكثر، اجتاحني خوف. أصخت السّمع. تناهت إليّ دمدمة وأصوات متقاطعة خافتة. ثمّ كتف هلال يدفع الباب بلا عنف، يدفعه، حتّى تراجعت الدفتان عن إطارهما، وصار تمرير الكتفين ممكناً.

- «برأيي، خلّينا نبطح الباب إلى الدّاخل»، قال وعينه تبصبص نحوي من الفتحة الجديدة.

- «مع من كنت تتكلّم»؟ سألته بقلق.

- «كأنّهنّ جاراتك. جئن للفرجة. قليلات حياء! هل أبطح الباب»؟

- «لا. لا أريد عنفاً». كنت خائفة. «خلّه بحيث يمكننا إعادته».

تبادلنا نظرة صارت بغتة حزينة، ثمّ صارت ابتسامة حزينة، قال: «الآن ليس وقت محاضرات. لكنّ مسك العصا من الوسط غلط. وحتّى، غير أخلاقي».

- «أنا خائفة، هلال. مرعوبة».

- «الرّعب أفضل من الجبن».

وفجأة عدل عن إلحاحه كمن أحسّ أنّه تجاوز حدّ حرّيّته. قال:

- «كيف سأدخل من هذا الشّق لأشرب فنجان قهوة من ضيافتك»؟

- «فيما بعد. سيأتي الوقت».

ـ «طيّب. أنا مسافر إلى العاصمة بعد يومين. أعطوني وظيفة أحسن في (الخدمات الإعلاميّة).

ـ «سأشوفك».

ـ «إلى اللّقاء».

واختفى. مكثت وراء الباب. ربّما، ربع ساعة. هل كنت طوال هذه السّنين الأربع أمسك العصا من الوسط؟ عندما كنت أسامح، هل كنت أمسك العصا من الوسط؟ ما الفرق بين السّماح والمساومة؟

هناك أوقفني الهلع والاضطراب من جملة هلال الأخيرة. لم يكن أيّ طريق جديد قد خطر على بالي. فكّرت في الباب فقط. رجوت الله أن يُصيب ناصر بصدمة تجعله يفيق من تيهه. ليس هناك قيد يمكن أن يفرض على امرأة إلّا إذا قيّدوا عقلها به.

ثمّ وصل هو. لبطتان متتاليتان رمتا الباب داخل البيت. وانفتح فراغ رهيب يخطف البصر، في وسطه قامة حدباء، تبيّنت وجه ناصر في أعلاها.

أحسست أنّ المستنقع قد غصّ بالجثث. وكان لدى ناصر الإحساس نفسه، ولكن بطريقة أخرى. تناول زندي بقبضة يد، وأهوى على وجهي براحة اليد الأخرى. لم ينطق بكلمة واحدة. فعلاً إذا تعطّلت اللّغة تحرّك العنف. وقد ارتدّ ناصر إلى البربريّة.

انهال عليّ بالضّرب واللّكم والرفس. ولفلف عقلي بالرّعب من تشوّه وجهي وصدري وخاصرتي. كنت سمينة فعلاً، مثلما قال رعد. وقد حمتني سمنتي. لكن ذلك زاده جنوناً. وجاءت لحظة من الزمن الّذي صار دهراً، فجعلته ينقضّ بفكيه على نهدي المعرّى،

ويغـوص في اللّحم. وصرخت حتّى اهتزّ البيت، واهـتزّت الحـارة من صراخي.

شكـراً لفضول جـاراتي الثّلاث. وصلن في وقت لم يعـد مناسبـاً، لكنّهنّ وصلن. لم يكن بوسعهن شيء ضدّ عنف ناصر، طبعاً هو فقط لم يرض أن يرينه على هذه الحال.

أبعـدهن بسرعة. وفيـها أنـا أتحـدّب عـلى نهدي وأخنق صرخـاتي التـالية، كـان هو يعيـد الباب إلى إطـاره، ويفتحـه بـالمفتـاح، فيقف عنده.

زحفت من معقـد إلى آخـر، ومن بـاب إلى بـاب. يـدي عـلى صـدري، وفكي الأعلى مشـدود على شفتي السّفـلى. في غرفـة النّـوم أحسست أنّـه لم يعـد هنـاك مـا يمنعني من الصّراخ. لكن قلبي كـان ضاوياً خاوياً. كلّ صرخة صرختها لم تزد على أنين متطاول يشبه جعير كلبة تختنق. لم أستطع جلوسـاً، ولا وقوفـاً، ولا تمدّداً. رأيت الـدّم، فازددت احتضاناً يائساً لنهدي. ثمّ لم أعد أرى.

ذلك كان آخر عهدي بناصر.

كـلّ أشيائـه الجميلة ظلّت له وحـده. لم تقـترب منّي بـأيّ جمـال. اقـتربت بالقبـح. وسامتـه كانت فخّـاً ظللت أربع سنـوات أقع فيـه. رجـولته كـانت كابـوساً في اللّيـالي والنّهارات. تكـريسه كـان فرمـانـاً بإقصائي عن مـرافقته ومشـاركته. سعتـه ضاقت وصـارت زواريب. وعنف وجدانه اتّسع.

طبعاً لم يأتني بطبيب. لم يحملني إلى مستشفى. تركنـا تلك الثّقوب لتـرمّم نفسهـا بنفسهـا. وقـال هــو: «أنـا عــارف أنّي تصرّفت مثـل البرابرة». وأضاف فيما بعـد: «اصبري حتّى تـطيبي. ستلاقـين ناصر

غير الّذي عرفته حتّى الآن. لن أطالبك بعقد ملكيّة. شهوة التملّك جعلتني همجيّاً. اكبسي الملح على الجرح حتّى تطيبي. إذا خرجت هذه الفضيحة خارج البيت، قضي عليّ».

مع الأنين رجوته: «إذا كنت صادقاً، هات حسّان وحيّان».

«ويرونك على هذه الحالة»؟

في الضّحى التّالي غادر البيت دون أن يقفل الباب. كان نهدي مايزال يرسل تموّجات قصيرة متتابعة من الألم. غير أنّي فكّرت في حسّان وحيّان. لم يحضرهما ذلك اليوم. ولا في اليوم التّالي. تأكّدت تأكّداً أصمّ أنّه لن يمكنني من رؤيتهما قبل أن أوقع معه عقد ملكيّة جديداً. وفي اليوم الثّالث سمعت صوتاً من داخلي يردّد بخفوت ورتابة: لقد انكسرنا كِلانا. رأيت الكسر نهائيّاً، متأبّياً على الجبارة.

لأوّل مرّة أفعل شيئاً هتف به صوتي الدّاخلي، صوت نادية الّتي لم تعد تطيق الفرجة على نادية. خلال ساعتين كنت قد ملأت حقيبتين ممّا أحتاجه من متاعي. وخلال نصف ساعة بعدها، كان سائق سيّارة أجرة يحمل إحداهما على كتفه والثانية بيده، ويمشي أمامي إلى السيّارة.

عدت إلى بلدتي. إلى رعد، الّذي كان مسافراً في إيطاليا، الآن وقد دخل مع عوّاد في شراكة تجاريّة. وإلى عابد، الّذي كان يسكن في بيت جديد مجاور: رحّب بي على مضض، ولم يحر جواباً بعد أن طمأنته إلى أنّني لن أطلب منهم مالاً. وإلى السّت مقبولة الّتي لم تستطع أن تفهم لماذا لا يمكن أن تضمّني إلى صدرها، وزعلت.

ارتحت ذلك اليوم. لم أتوقّع أن يلحق بي ناصر إلى بلدتي. وفي

الصّباح التّالي خرجت إلى الحقول. كنّا في أوائل الخريف. لكنّ الأرض كانت خضراء وزاهرة. رأيت أسراب النّحل، ورأيت المناحل. تمشيت كعادتي القديمة على سفح جبلنا المخروطي. كانت ألوان الشّجر حشداً ناريّاً هائلاً من الجمال والذّبول. القرميدي والأصفر والأرجواني والفستقي... لكنّها كلّها كانت خالية من لون الذّبول الّذي في روحي، لون الصّدأ.

كلّ تلك الصّور الّتي كنت أفرّ إليها من الضّاحية في العاصمة (ش)، وجدتها أمامي هنا، في بلدتي. أمامي وليست أمامي. في متناول أصابعي، وغريبة عنّي. جميلة ومرتعدة ومبتعدة.

أخذ صدري يؤلمني، فعدت أدراجي إلى البيت.

كانت السّت مقبولة قد هيّأت لي إفطاراً يكفي لمدعوّي حفلاتي السّابقة. جلستْ إلى جانبي جلسة أمّ متهجدة. وظلّت جامدة إلى أن رأتني أخيراً أكفّ عن الأكل. اندفعت نحوي؛ ولقمة بعد لقمة، ضحكة إثر ضحكة، فرضت عليّ إفطاراً ثانياً ولكن لا نهاية له. أخيراً لم يعد بوسعي تناول لقمة واحدة. ومع ذلك ظلّت تلحّ وظللت أرفض، تلحّ وتتوسّل، وأرفض وأضحك، حتّى أخذنا نبكي.

رأيتها أمّاً، حلاّبة البقرات هذه الّتي صارت بحكم الزّمن ست البيت. لقد حدست وقعتي بلا لغة، فحكيتها لها. ثمّ قلت: «تروحين معي إلى العاصمة يا مقبولة»؟

شردت عيناها ثواني قليلة. مؤكّد أنّها حسبت ردّة فعل أخي عابد قبل أن تهزّ رأسها: «أروح». وبعد يومين استقللنا سيّارة إلى العاصمة.

خلال ثلاثة أيّام كنت قد سكنت في شقّة صغيرة. غرفة نوم وغرفة جلوس، ولواحقها. لأمر ما، لم تكن العاصمة غريبة بقـدر ما كـانت تلال بلدتي. ربّما لأنّها لم تكن يوماً قـريبة بقـدر ما كـانت بلدتي. لقد حدث لي شيء حزين: أكثر الأماكن ألفة صارت أكـثرها غـربة. كـلّ الأمـاكن الّتي أحببتها من القلب، رأيتهـا فُخـوخـاً لـه. وهي أمـاكن قليلة، شكـراً لله. أمّا الأمـاكن الأخرى، فنعمت منهـا بغـربـة حلوة هادئة.

أعـدت مقبولـة بسيّارة خـاصّة إلى بلدتي. وبعـدها مبـاشرة ركبت التّاكسي إلى الجامعة. وكانت مئتا دولار كافيتين للحصول عـلى نسخة جديدة من شهادتي.

هتفت لهـلال عنـد المغيب. جـاءني بقميص وربـطة عنق، عـلى الطّريقة الأمريكيّة، وحقيبة فاخرة. كان مرتبكاً من هيئته وسيمائـه. لم يكن ذلك ليهمّ. وقد أخبرته: «المهمّ أن نجلس. . لا أحـد منّا ملزم تجاه الثّاني بشيء».

ضحك وردّ معابثاً: «أنا ملزم تجاهك بخبر صغير».

ـ «الأخبار ليست إلزاماً».

ـ «بلى. عندما تكون طريقاً جديداً مفتوحاً لك. خلاص، قـرّرت تمشي بمفردك»؟

ـ «قرّرت»؟

ـ «وأولادك؟»

ـ «فيما بعد. سيأتي الوقت».

ـ «هذه مسألة لا مزاح فيها. حبّ الأولاد قاهر».

ـ «أعرف. بعد شهور سأسـاوم ناصر. أتـرك له الـدّار، ويترك لي الأولاد».

ـ «أظنّه سيلبّي طلبك فوراً».

ـ «أنت غلطان. ناصر لا يمكن أن يتنازل عن شيء يملكه».

ـ «أنت غلطانة. ناصر رجل طيّب. ضمن مقاييسه الخاصّة. هو ابن لثقافة جوهرها الاستبداد. هو ظنّ أنّه تحرّر منها يوم اعتنق مبادىء تقدّميّة. طبعاً هذا الاعتناق لا يعني أنّ ناصر تحرّر من الدّاخل. هو ضحيّة، لا ذئب».

ـ «مهما يكن. أنا ما عاد لي جلد على العيش مع الضّحايا. ومثاليّتك هذه، بعها لغيري».

ـ «لا تزعلي. مثاليّتي هذه لا تعني أنّي أبرّر تصرّفات ناصر، أو أحترمها».

ـ «أنا قرّرت أمشي في طريقي الجديد. ما هو الخبر الّذي يخصّني عندك»؟

ـ «فرصة عمل في (الخدمات الإعلاميّة). فرع العلاقات العامّة».

ـ «صحيح! ما طبيعة العمل»؟

ـ «سنحكي ونحن نشرب البيرة في (موفنبيك). ونناقش الموضوع».

ـ «نناقشه هنا. أم أنّك ملتزم بنداء العفّة»؟

بدا مرتبكاً رغم انشراحه. حدّقت فيه أنتظر جواباً.

قال: «أنت شايفة.. الجوّ هنا مناسب للعشق.. وأنت امرأة جميلة.. يعني»!

ـ «تخاف أن تغتصبني»؟

ـ «أعوذ بالله! لماذا هذه الكلمة الفظيعة»؟

ـ «ماذا تريد إذن»؟

ـ «كائناً ما كان. خلّينا نخرج إلى (موفنبيك). أنت الآن في وضع خاصّ، ويمكن واقعة تحت تأثيره».

ـ «أيّ وضع»؟

ـ «علاقتك المنهارة مع ناصر. كلّ امرأة في هذا الوضع تريد بديلاً فوريّاً، حتّى لا ينهار حسُّها بأنوثتها».

قمت إلى ركن الغاز: «كيف هي قهوتك»؟

لم يلحّ. قال: «سكّر قليل»؟

رأيت موقفه غامضاً. لو أصرّ على الخروج لطحن عافيتي وأنوثتي. إلّا أنّه لم يظهر أيّة بادرة تنمّ عن رغبته فيّ. المرأة كائن غريب. كنت واثقة تماماً أنّ مئة ألف رجل يمكن أن يشتهوني. لكنّي كنت لحظتها خائفة من أنّ لا يكون رجلٌ بعينه واحداً من هؤلاء.

أشعلت نار المطباخ على أخفّها. وبقيت عندها أحرّك محتويات المغلاة بلا ضرورة. أدرت له ظهري وانتظرت ما سيفعله. إذا لم تحرّك وقفتي فيه حافزاً، فلا شيء سيفعل في المستقبل.

أحسست باحتقار لنفسي. ليس احتقاراً ذاتيّاً سببه محاولتي غواية رجل. إنّه احتقار سببه وعي آخر: الحاجة بذاتها إلى رجل يهتمّ بي. ما فائدة حرّيّتي إذا كنت سأستبدل ناصر برجل ثانٍ؟

«ما طبيعة عملي في مؤسّستكم»؟ سألته بعد قليل.

أحسست به ينهض. ويقترب. لم يتكلّم. أحسست به يقترب. أحسست بأنفاس صدره تمسح على ظهري. توقّفت يدي عن تحريك القهوة، أو كادت. وفي اللّحظة عبر جسده بي ومشى إلى النّافذة.

رأيتني مهانة ومستباحة. بل رأيت أنّي أهنت نفسي واستبحتها.

وفي الوقت ذاته، عاينت قلبي يغور: لقد وطأه حسّ بالتفاهة والرّداءة خلّفه عبور هلال اللاّمبالي بي.

كان يقول: «ترتيب مواعيد، اتصالات بالشركات، ووزارات الدّولة، وخاصّة وزارة الإعلام. والإشراف حتّى على الكهرباء والهاتف، إذا تعطّلا»...

فارت القهوة. شهقت. التفت هلال وعاد بسرعة. وقف بحذائي. مسحت القهوة المنكبّة بفوطة. مسحت ومسحت. وهلال واقف يراقبني.

مرّة أخرى هجم عليّ احتقاري لنفسي. هذه المرّة ليس لاحتياجي إلى هلال، وإنّما لسلبيّتي. أجل. لماذا تنتظر المرأة أن يبادرها الرّجل بالحبّ؟

التفت إليه بعزيمة مفاجئة، ولكن هادئة. نظرت في وجهه، والتقطت من عينيه سؤالاً: هل أنا مقبلة على حبّه؟ وقلقاً: هل هو شيء أم ذات بالنّسبة لي؟ وخوفاً: بماذا سنشعر فيما بعد؟

عدت إلى المغلاة أحرّك قهوتها وأراقب فورانها. وسمعته يقول: «... مع الرّجال على قدم المساواة. أنا واثق من نجاحك. ستفرضين ندّيّتك عليهم بسهولة».

تفرّست في وجهه من جديد، وأنا بين السّخرية من نفسي والغضب عليها. لماذا لا أفرض ندّيّتي الآن»؟

أطفأت نار الغاز، والتفتُّ إلى هلال لأشعل ناراً من نوع آخر. يقول أبو حاتم إنّ نقاط التحوّل في حياة الإنسان تأتي دائماً عبر لحظات غافلة، وسعيد هو الّذي ينتبه. لم أكن في تلك اللّحظة عاشقة لهلال مطر، ولا حتّى مأسورة بحافز جنسيّ. فقط بعد أيّام وأيّام،

صرت واعية بنقطة التحوّل تلك، الّتي هلّت عليّ. لقد نقلتني من وقفتي الخائرة البائرة إلى الحركة والفعل. مددت ذراعي على كتفي هلال، وفي داخلي حركة فوّارة طافرة، حركة أردت أن ألبّيها وحسب، أن أسلم نفسي بلا حسابات ولا مراصد. كأنّ نبعاً شاسعاً قد فاض فجأة بمياهه الجوفيّة، وأزاح عن سطحه ركام الأوراق الميتة الّتي سقطت عليه من عشرين شجرة وارفة مجاورة. كانت الأوراق قد غطّته تماماً، حجبت عنه الرّيح والشّعاع. وهكذا ثنيت ذراعي على ظهر هلال، وكان جزعي قد صار سلفاً بين ذراعيه ولصق صدره.

ـ «أنت متأكدة أنّك لن تندمي»؟

لم أجد ضرورة للجواب. زحفت حتّى التقى حوضي بحوضه. يده اليمنى لامست نهدي الجريح. جفلت. همست: «هذا الصّدر موجوع». سأل وجهه لماذا، فقلت: «عضّه ناصر».

أعاد صدري تماماً إلى نهديّته. قبّلني على ذراعي. وربت على ظهري. «خلّينا نشرب القهوة».

كنت مرتبكة تماماً. بالتأكيد أردته أن يغتصبني. ليس لأنّي تلك الأنثى العريقة الّتي تستعذب النّاب والمخلب. وإنّما لأنّي الأنثى الّتي دمغوا صورة الجنس في وعيها بالإثم والوسخ. خشيت ألّا أتمكّن من مقاومة الشّعور والإحساس بالوسخ، فأردته هو أن يعبر بي ذلك المستنقع. الورق الميت الّذي جرفه الفيض قبل قليل، حملته رياح غريبة مفاجئة وذرّته في داخلي. وصار واضحاً أنّ مشاعر الإثم والوسخ قد نهضت من رمادها، وفكّكت أوصال حرّيّتي.

ـ «أين الفناجين»؟ سأل هو بنصف صوت.

أشرت له. تناول اثنين، وعدنا إلى الأريكتين. عند الطّاولة

الصّغيرة التفتّ إليه. وضعنا الأشياء من أيدينا. وعبر ثوان من الصّمت والسّكون، سطع علينا ضوء مرور أخضر.

بقينا دقائق متعانقين. الجمال والفرح جاءا لحظة أسقطت الزّمن من جبيني، وفكّرت فقط في تلك البرهة. رأيت أنّ الرّجال ليسوا كلّهم بالضّرورة مثل ناصر. هناك رجل واحد على الأقلّ يختلف عنه. ومثل سطوع باهر أضاء ودياناً وحقولاً ومراعي، أدركت أنّ اختلاف هلال مطر عن ناصر الصّفوي هو بالضّبط ما بحثت عنه واحتجت إليه دون أن أعي بحثي وحاجتي.

لا يمكن لامرأة أن تشعر بكرامتها إذا لم يحسّ جسدها بكرامته. لا يمكن لامرأة أن تكون حرّة إذا ظلّ جسدها عبداً. حرّيّة المرأة تبدأ من سرّتها. وعندما جاء ذلك اليوم، ولمسني هلال هناك، أحسست حقاً بحرّيّتي.

منذ أوّل لمسة، كان جسدي زهرة، ويده أنفاً كبيراً. مرّة بعد مرّة، توقّعت أن يتفصّد لحمي أسلاكاً ووشائع، مثلما، تفصّد بلمسات ناصر. لم يحدث شيء من هذا. ليس تماماً، في الحقيقة. لقد مرّ زمن لا بأس به قبل أن تتحرّر سُرّتي من وشم ناصر. كانت قد اعتادت على أن تتحوّل إلى أسلاك كلّما أحسّت بكتلته تقترب منها. وكانت الأسلاك متشابكة ووعرة. وعندما تنشحن بتيّارات ناصر، كانت تتشنّج وتحمرّ وتكفهرّ. كأنّ تيّاراً كهربائيّاً عالي التّوتّر أخذ يرجّها ويفجّها.

خلال حوالي ثلاثة أسابيع لم يكن هناك أكثر من تلك اللّمسة الشّافية ـ الاحتضان والعناق والقبلة. ذلك النّداء. وبعدئذ: «خلّينا

نشرب القهـوة»، أو «خلّينا ننـزل إلى البحر» أو «القعـدة في موفنبيـك حلوة قبل المغيب».

أثارتني مواقفه. أثارتني وأغاظتني وأحبطتني. لم تسعفني مرآة، ولا ابتلاع بطن، ولا أدوات زينة. شيء واحد فقط بدا مؤكّداً لي: أنوثتي تعطّلت. عبثاً استجديت المرآة والملابس والمزينة. لقد تفلطح جسمي وتهدّل.

كلّ ليل كنت أضطجع عـلى سريري الصّغـير وأنا مغـرقة تمـاماً في الحـزن والشّقاء. أجـل. ناصر الصّفـوي أهلكني. وهو أيضـاً الّـذي يؤرّقني. بالتّأكيـد. كلّما لامسني هلال، هبّت في جسـدي استجّابـاتي القـديمة لنـاصر، وجعلتني أعوي. لا أدري إذا كـان هلال قـد أحسّ بذلك. أنا أحسست به.

في بداية الأسبوع الثّالث، لامسني وداعبني بتحسّسه الحنون الّـذي صار مألوفاً، وبإحجامه المستفزّ، فاشتعلت بي نيران نـاصر الصّفوي. أردّت من هلال أن يهجم عليّ، ويمـزّق ثيابي، ويمتـطيني. تشبّثت به. تصمّغت عليـه. وبـدلاً من استجـابتـه، وضـع راحتـه عــلى رأسي، وأغرق أصابعه في عمق شعري، ثمّ أسند وجهي على كتفـه. وعرفت أنّه مازال بالنّسبة لآلة جسدي عاملاً محرّضاً وحسب، موضوعاً لا ذاتاً. روّعتني المعرفة: لـو أنّه أحسّ بـالحافـز الّذي شغّـل آلة جسمي، لـو عـرف أنّه لم يَغْـدُ حتّى ذلك اليـوم أكـثر من عنصر يلهب استجـابـاتي القديمة لاستلاب ناصر لي... فـما الّذي كـان سيفعله؟ أم أنّه عـرف وأخفى؟ لقـد اضطجعت ليلتهـا على سريـري وأنا أفكّـر وأتفـرّس في ذلـك الهول. كنت مثـل محرّك سيّـارة أُعِطيَ أقصى كميّـة من البنزين دون أن يحوّل إلى قناة الانطلاق.

ثمّ تلك اللّمسة في اليوم التّالي. الّتي هي نداء. الّتي هي برد وسلام. الّتي ليست شاحناً كهربائيّاً. الّتي انسرحت على جسمي كما لو أنّه تعرّى في الرّيح، ويد هلال تمتدّ عليه شرشفاً. لا أستطيع حتّى الآن وصف تلك المشاعر. أعرف أنّها لم تضعني على طريق التيّار الكهربائي.

ذات مساء أحسست أنّني فهمت. كانت مناغشات هلال قد استكشفت لحمي، وعزقته، ودلّلته، وأنعشته. الرّاحة الّتي ترقرقت في جوانحي شجّعتني على تذكّر ناصر بلا خوف ولا قرف. تذكّرت بشكل خاصّ موجات اللّهيب الّتي كانت أصابعه تدفقها في لحمي. تذكّرت تأبي النّوم عليّ كلّما امتنع عن ممارسة الجنس معي. وفهم. انتبهت: ذلك الانحرار القديم، تلك الانشدادات الفاغرة، بدأت تتسلّل إليّ في تلك اللّحظة. راقبت جسدي وأنا عاجزة تماماً، عاجزة حتّى الرّعب، عن منع تلك الانشدادات من استباحة راحتي وهنائي. رأيتها ترفع رؤوسها، وتتمطّى داخل روحي.

قلت لنفسي: يا إلهي، إلى متى سيظلّ ناصر الصّفوي يسكنني ويرافقني؟ قلت لنفسي: لو قبل هلال أن ينام معي منذ أوّل مرّة شجّعته فيها، لمزّقته براثن ناصر الصّفوي النّاشبة في لحمي. كنت، وبحكم العادة، سأتحوّل إلى كلبة مسعورة تريد جنساً، جنساً، جنساً، وبعدها تظمأ للحبّ؛ وكان هو سيضطر إلى السّقوط في ذلك الفخ.

على الأغلب لم يكن هلال واعياً بهذه التّشابكات. تصرّف معي بنوع من الفطرة. انتبه فقط إلى أنّه لا يريد أن يملأ الفراغ الّذي تَبَلْوَنَ في حياتي منذ تركت ناصر. «لو نصل إلى بعضنا عن طريق

ثانٍ، يكون أفضل. هذا الوصول عافية للروح. لكن.. الطّرق الآن غير سالكة.. إلاّ الطّريق الموصل إلى دوار ناصر في داخلك».

إنّني أذكر ذلك اليوم ـ يوم دخلنا شقّته بعد الظهر. أردنا أن نحتفل بنجاحي في الأسبوعين الأوّلين من شغلي في (الخدمات الإعلاميّة). قلت لنفسي لاشكّ أنّ هلال يدرك الآن أنّ جسدي قد تعبّأ بقدر كاف من الحرّيّة.

هل هذا كلام إنشائي؟ أبداً. في بلدتي، في عاصمتي، في العواصم، كلّ امرأة عرفتها شربت العبوديّة مع شربها للّذة الجنسيّة. الرّجل الّذي يفضّ غشاء بكارتها يصير هو نفسه غشاوة برونزيّة على وعيها وحرّيّتها.

هلال هو الّذي جعل طريق حرّيّتي سالكاً باتّجاه الحبّ. لمساته واحتضاناته الّتي لم تستفزّ جسدي، ولا حرّضته، وإنّما جعلته فرحان بحاله. هذه الاحتضانات كانت وخز الإبر الّذي يعالجون به أمراضاً وأمراضاً. وقد شعرت بتلك العافية، وأنا أرمي جزداني على الأريكة في بيت هلال، وأقول له: «أنا الآن أمتلك حرّيّتي». ومددت يدي إلى أزرار قميصه.

ابتسم بصفراويّة حانقة. ومدّ يده فقبض على أصابعي. نظرت إليه بلا ضيق، بابتسامة منتظرة حنونة. وعندها أمسكتْ أصابعه بأزراره، وراحت تفكّها.

لم نستعجل. أخذت أنضو ملابسي عنّي ببطء سعيد. أحسست مع انزياح كلّ قطعة أنّ جبلاً قد انزاح عنّي وتكرمش كمخروط ورقيّ. أحسست أنّ وشماً قد تقشّر وهوى كوذمة ميتة. بقيت فقط تلك السّفوح المعشوشبة في بلدتي، الملفوحة برياح الأشعّة والغيم. كلّما

نضوت قطعة شعرت أنّ جسمي يخضرّ. فقط عندما تعرّيت تماماً اكتسيت بفرح الشّعور بأنّني غدوت خضراء كتلك الحقول.

أنفاسه هي الّتي وصلت أوّلاً إلى سرّتي. ثانيتين أو ثلاثاً. ثمّ موجة صوت وحرارة من شفتيه. وعندما استقرّ رأس لسانه في ذلك الجون الصّغير، صار حبل سرّة. وعرفت أنّ هلال قد صار شقيقاً لروحي وصرت شقيقة لروحه، وأنّنا أمكننا أن نلتقي أخيراً.

ولم يكن في ذهن أيّ منّا أنّ نهاية ما ستأتي على الإطلاق. لقد حطّ بي على السّرير. لم ننفصل. فلقتيْ بذرةٍ كنّا، ورشيمنا في القلب من كياننا. ومع ذلك عدوت إليه وعدا إليّ. عدوت إليه وأنا ماأزال مظلّلة بسقوف الشّجر، وكان هو في كلّ مكان، يضغط على ذرّات جسدي ويجبلها بالنّشوة، وينزع منها الفتائل. وكانت هناك أزرار تفتّحت، صارت أزهاراً. وفي ومضات متقطّعة خاطفة، راودني الخوف من أن يضغط ولو بطريق الخطأ على تلك الأزرار فيرسل فيها تيّار كهرباء بدل أن يرسل نهراً من النّسغ.

كنّا في حالة أقرب إلى اللّعب منها إلى الاضطجاع. كنّا جالسيْن. أطرافنا تتقاطع وتتلامس. أصابعنا تنزلق على اللّحم المبخّر بالشبق. تمسك بالأضلاع وتشدّ عليها. تشدّها نحو الأضلاع. تقارب جسدانا. زحفا وتقاربا. استقرّ فخذاي فوق فخذيه. يداه وساعداه اجتاحت ظهري وإبطي وظهري، وسحبتني إليه. وفي تلك اللّحظة المارجة علونا إلى سقف العالم. تداخلت شفاهنا. حصر صدره صدري. مددت يدي المرتعشة ولأوّل مرّةٍ في حياتي أولجت الذكر في نجمتي. ورأيت ماكينتي القديمة تتفكّك عنّي وتسقط من حالق تاركة لجسدي أن يتعربش على جسد هلال. شيئاً فشيئاً وجدتني أهبط عليه ومعه. ووجدتنا نطير.

هكذا بدأت رحلتي مع هلال. واستمرّت. تحرَّر جسدي فتحرّرت روحي. صار جسدي موضوعاً لحبّ هلال وليس غرضاً لشهوته. صار قيمة ووطناً وحقولاً.

قصّتي شارفت على الانتهاء. وما سأكتبه، معظمه لمحات ربّما تصلح لقصّة أخرى. لقد صحّ توقّع هلال، وتنازل ناصر عن حسّان وحيّان مقابل الدّار. بعد أربعة أشهر عدت إلى العاصمة (ش)، إلى مقهى (ويمبي). وجدته هناك جالساً وسط كوكبة من الأدباء والمريدين، وبينهم ذلك الغلام. انضممت إليهم بغتة فانقطع الكلام والحركة. واختفى من وجه ناصر اللّون.

بلا إبطاء قلت له: «بيننا أمور معلّقة. ممكن نناقشها على طاولة منفردة»؟

«قولي ماذا تحبّين»، هتف بشهامة وأريحيّة.

«أريد الولدين... وأترك لك كلّ شيء غيرهما».

«الّذي تريدين».

منذ ذلك الحين والولدان في روضة أطفال تعتني بهما من الصّباح إلى المساء. إنّني أراهما أكثر من ذي قبل. عند الصّباح نمضي معاً ساعة سعيدة قبل مجيء الباص. وعند الظهر أتناول غدائي معهما في الرّوضة. ولدى عودتهما في الخامسة نبقى معاً حتّى يناما في سريري. إنّهما ولدان طبيعيّان. وليس لدينا وقت نضيعه في الصّراخ والنّكد، نحن الثّلاثة، فحياتنا حافلة باللّعب وبما يجب فعله. إنّهما يكبران كلّ يوم مع الحبّ والعلم والحسّ السّليم.

أثناء العطل والإجازات، أرسلهما إلى مقبولة. لا أحد من إخوتي يسيء إليهما.

ورعد الّذي هدّد بقتلي إذا فضحتهم وطلّقت ناصر، تعلّم كيف يتكيّف مع الولدين ويحبّهما، مع ولديه. وتعلّم أن يتكيّف مع وضعي الجديد. وعندما جمعته بهلال، ظلّ مرتبكاً ومتحفّظاً وليس معادياً.

لقد ظلّ رعد يتأرجح بين وعيه الجديد ومسلّماته منذ أن زارني - في العاصمة (ش) قبل عام. وما إن خرج هلال إلى شقّته، حتّى هرع هو إليّ وهتف بنصف حنق: «كأنّه انزعج من شيء؟ لماذا انسحب؟» وقلت له إنّ هلال منزعج منه بلا ريب، ومن أسئلته الّتي دارت كلّها حول سؤال واحد: هل ينام هلال معي؟

«هل ينام معك»؟ سألني بلا مواربة.

«أنت شخص ميؤوس منه»، قلت له، وحردت تماماً عن مخاطبته.

ودّعني ومضى. عند الباب التفت وسأل: «لماذا لا تتزوّجان؟ ردّة فعلك ضدّ ناصر، ذات يوم تزول..» وصمت فتفرّس في وجهي. لأوّل مرّة في حياته يقرأ في وجه إنسان ما معنى. غمغم: «تقولين لنفسك، الزّواج مؤسّسة معفنة، ما»؟ وهزّ رأسه فخرج.

لن أقول إنّ كلّ شيء سعيد وعلى مايرام في حياتي الجديدة. إنّ أوقاتاً عصيبة تمرّ، فأصيح أمام هلال: «أنا ضائعة، ضائعة. لا مركز لي». أو يصيح هو: «ما هذا! كنت مرتاحاً بدونك! الآن أنا محتاج لك!» أو أزجر بوجهه: «من هي هذه الّتي كنت معها، الّتي أنفها مثل المخرز»؟

لكنّنا حافظنا على القرار القاسي بعدم التزام أحدنا تجاه الآخر بشيء. ألغينا.. امتنعنا عن كتابة عقود ملكيّة.

إنّني أواجه في عملي شقاءات عديدة، تعباً لا ينقطع، وركضاً وراء الوقت حتّى الثّامنة مساء من كلّ يوم. وبين يوم وآخر، أدمدم بوجه

هلال: «آخ على الرّاحة والكسل في الحياة الزّوجيّة». ويهزّ هو رأسه بنفي قاطع، غير عابئ حتّى بأنّ يردّ. وأصيح به: «يا أخي أنا أتكلّم في العموميّات. هناك أمان كبير تحسّه المرأة المتزوّجة. تجاه حياتها وحياة أطفالها». ويردّ هو: «أمان يكلّفها إنسانيّتها، بس، يجعلها تصير دودة مرتاحة متمهّلة».

هناك أمان رهيب في شعور المرأة الدّودة بأنّ لديها رجلاً. قد يخرج الرّجل من حياتها الوجدانيّة بالكامل، لكنّه يظلّ هناك: حضوراً يبعد أشباح الرّعب، وخاصّة عندما يفرض عليها ذكورته.

هذا الأمان، أنا أفتقده. وهلال أيضاً ـ كلّما حالت ظروفي دون لقائنا. وعندها يفرمنا يقين صارم بأنّ صداقتنا وهم فظيع، أشنع من وهم حبّي لناصر. «تغيب عن ناظري، فيغيب معك كلّ شيء! وأحسّ بأنّ كلّ شيء غير حقيقي، وبأنّي صرت عجوزاً شمطاء». فإذا كان في حالة نفسيّة مرتاحة، غمغم لي: «وأنت في الحقيقة عجوز شمطاء. هل قال لك أحد إنّك شابّة، وجميلة»؟

لن أحاول أن أطلق تسمية على ما بيننا. ربّما ولدت تسمية في المستقبل. لأنّ هناك مستقبلاً. إنّ شعور الغربة واللاّملكيّة كثيراً ما يوصلنا إلى تبادل الصّراخ والاتهامات والتّهديدات. ونمضي أيّاماً في حالة من النّفور الشّديد، من التّصميم على القطيعة النهائيّة. غير أنّنا ننجح دائماً في فكّ تلك الأفاعي عن أعناقنا، واسترداد عافية الحرّيّة. وعندها يصير ممكناً أن نتبادل الحبّ في المصعد، أو التّاكسي، أو لجوة في زقاق ما، أو في المكتبة الوطنيّة. . . .

نحن لم نعد، كما قال أبو حاتم، فردين يمتلكنا المجموع. لكنّ هذه شذرات من قصّة أخرى.

٢٠-٥-١٩٩٣

مؤلَّفات د. هاني الراهب

من منشورات دار الآداب

* المهزومون
* ألف ليلة . . وليلتان
* الوباء
* التلال
* خضراء كالمستنقعات
* خضراء كالحقول



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت